زعيمة سليمان البداوني

القصص القومي

بسم الله الرحمن الرحيم

" هدية "

الى الاستاذ الفاضل ماركو سترسى المحترم

مع فائق التقدير والاحترام

هذا في جمادى الاولى ١٣٩٦ هـ

الموافق ١٥ مايو ١٩٧٦ م

طرابلس - ليبيا

بنت الوطن

ز. البارونى

القصص القومي

الطبعة الثانيـة

ذو الحجة ١٣٩٢ هـ

فبراير ١٩٧٢ م

اهداء

الطبعة الأولى

إلى النفوس الكبيرة ، الموقرة لحقوق الوطن والقوميـــة العزيزة .

إلى كل محب للاصـلاح الحقيقي ، ومفكر في خير النشء خاصة ، في الحاضر والمستقبل .

إلى حماة الأخلاق الأبية ومؤيدي الفضيلة الحقـــة . إلى العاملين المخلصين .

المؤلفة

اهداء

الطبعة الثانية

إلى روح فقيدنا الغالي طارق ابراهيم الباروني — ابن أخي — الذي حمل ملازم هذا الكتاب إلى مصر وهو طالب في البعثات الليبية العزيزة في سنته الأخيرة من كلية التجـــارة بالقاهرة .

وعمل هو وزملاؤه في تصحيح ملازم الطبع وكان باكورة عمل زميله مصطفى عبد الباسط في الطبع بمطبعـــة خاله إذ ذاك (المطبعة العالمية)، وعندما رجع ناجحاً وكانت المجموعة الحبيبة كلها قد تخرجت ، ابتسم رحمه الله وقال : « من بركات القومية والحمد لله » .

اللهم إرحم طارقاً واسكنه مساكن الخلود . إنك مجيب قريب .

عمته الصابرة

« بنت الوطن » ز ، البارونية

مقدمة

الطبعة الأولى

لا أدري بماذا أقدم « مواضيعي » وقد سخر لها أن تسافر إلى أرض « الكنانة »في أيام أرجو لها أن تدوم ساطعة سعيدة .

نعم، لا أدري بماذا أقدم مواضيع كتبتها منذ ١٩٥٣/١٢/١٨م في بلادي — طرابلس الغرب — ونشر منها ما نشر في جريدة « طرابلس الغرب » ومجلة « صوت المربي » ومجلة « هنا طرابلس الغرب » ولم تساعدني الظروف القاسية من كل وجه على نشرها مجتمعة في « كتاب » حتى بعد أن أنشئت المطبعة الوطنية ...

لست أدري بماذا أقـــدم مواضيعي في « القصص القومي » متسلسلة من قبل الفتح الإسلامي إلى أواخر الحرب الأولى ضد الإيطاليين ، وقد عنّ لي أن أصور بلادي في صور صادقة منذ أجيال وأن أجعل هذا العمل الصالح لإخلاصي فيه .. تحيـــة صادقة لجيل اليوم ، وقد زهت له مناظر البلاد ، وتجددت سبل الحياة ، ومهدت أمامه طرق«العلم » والمعرفة كما نقول ..ونتمنى من الله سبحانه وتعالى أن يصدق هذا القول ، فيسعد « الشباب» بعلمه ومعرفته في حرية وأمان .

غير أن من الواجب عليّ تقديمها إكراماً للغاية التي أملتها

عليّ والحقائق الصميمة التي تضمنتها ، ولذلك أقول : القومية كلمة جميلة كما ننطقها ، وجليلة كما نحسها ، وهي كما نعلم إكسير يحفظ للأمم خلودها .. وعند نضوجها تصبح تياراً جارفاً لما عداها من التموجات..ومن حق الشرق العربي أن يحمي قوميته ، وأن يشيد بأمجادها ، ويجدد ما بلي من صروحها ، ويزيد عليها ما لا يثقل عليها ولا يغير من أصلها .. ولا شك أن الشرق (السعيد بنوره) والذي جعله الله مهبطاً للوعي الإنساني لن تتحلل مزاياه ،ولن يفقد تلك الأمجاد التي تآمرت عليها الأحداث طويلاً . وما هذه الانتفاضات الواعية المستمرة إلا بشير ذلك المستقبل الزاهر الذي ننشده نحن أبناء الشرق العربي العظيم .. والعرب أحب الأمم لتراثهم وأشدهم دفاعاً عن قوميتهم وأسعدهم تمسكاً بها ..

فلتتماسك خطواتنا للخير العام ،ولتسمُ أحكامنا عن الماضي عن كل غرض .. لنهتم بتهذيب الطفولة وتقويم الشباب على ضوء « القومية » الصادقة المجيدة .. ولنخدم الوطن العربي الأكبر والإنسانية العظمى بما جبلنا عليه من إيمان وإخلاص .. نعم لنخدمها مخلصين للقومية بتدعيم أركانها ، بما أمر الله سبحانه وتعالى من أخوة وثبات وحب للخير والسلام ، حتى يتسنى لنا البقاء رغم الزعازع .. والخلود رغم تصاريف الزمان ..

لنحسن تعريف (القومية) الصحيحة لأبنائنا ، والسعيد من

عرف نفسه .. حتى يعرفوا بلدهم ، ويعرفوا لذة المعرفة التي تجعلهم و كأنهم يعيشون مع أسلافهم الكرماء ، الأماجد..لنبعد عنهم القشور الأجنبية المضرة !! لننشقهم عبير « الحقائق » المفيدة ولنربّ فيهم (ملكة التمييز ، ونجدد فيهم القوة والشهامة التي اتصف بها أجدادنا منذ أجيال .والله ولي التوفيق.

وما هذه (القصص) إلا قطرة من واد في سبيل الغاية المنشودة ألا وهي :

تمجيد القومية ،وتعريف النشء الليبي ببلاده وماضي أجداده منذ أجيال ليفهم ويقيس ويسعد بالاطمئنان .

طرابلس الغرب في ١ / ٤ / ١٩٥٨ **زعيمة الباروني**

مقدمـــة

الطبعة الثانية

بسمه تعالى

طبع هذا الكتيب في زمن غير زمن أهله فكان نصيبه من الإهمال بل والعرقلة نصيب صاحبته زعيمة البارونية ، فكان لا بد من الحذر وترك القصص بدون أسماء ، وغيره ، ولم يقبل لأي مرحلة في مدارس البنات رغم كتابة أكثر من مدرسة من الأخوات العربيات التقارير لترشيحه للشهادة-إجازة التدريس- فلم تفدني الدعاية له ، رغم إعجاب المنصفين الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان ، إذ ذهب أكثره هدايا ، و وبعد لأيٍ انتبهت له نظارة المعارف ، فطلبت ما تبقى منه عند الموزع ، فسلمها (٣٠٠)نسخة على ما أذكر قائلاً : هذا ما عندنا منه.وبعد مدة عثر على صندوق كامل .

والآن في عهد الثورة المباركة،الثورة المنورة بالأمجاد،الناشرة لبنود الحرية والأمن والآمال في قلوب أمثالنا، رأيت الاستجابة

لمن يقترحون طبعه ثانية ، ولكن مع الأسف دون أن أستطيع زيادة شيء أو إضافة أي نبـــذة مما يسعدني تسطيره في الثورة وأمجادها والجمهورية وأبطالها ، إذ لا تزال نار الفجيعة في الأعماق وظروف الأسرة الصحية وخصوصـــاً والدتي التي أصبحت في النزع الأخير والأمر لله .

حيا الله أمجاد أمتنا الكريمة ، وهداهـا السبيل السوي ، وأكثر من ابطالها المخلصين للحق والكرامة والإنسانية الحرة ، وثبت أقدام الثورة المباركة ليسطع النور كاملاً في الأرجاء وتزول العقبات أمام الأبرياء ، بل ليتسنى لكل مهضوم الحقوق أن يتنفس ، ويعمل لنيل حقوقه حتى في مجال الكلمة النزيهة مهما كانت بسيطة ،وأن لا يعد التشجيع منحة للمحظوظين فقط ، أعني النقد السليم والثناء على المحسن مهما كان .

نعم هكذا أقدم القصص القومي للطبع مرة ثانية في عهد الثورة المجيدة والله الموفق .

الاربعاء في ٦ جمادى الاولى ١٣٩١ هـ
الموافق ٣٠ يونيو ١٩٧١ م

« بنت الوطن »
زعيمة البارونية

١

قدسية الأمومة

بينما كان الشاب ميلود داخلاً للقرية من جهة الوادي الفسيح، وعلى كتفه « كنبوت »[١] صغير مملوء بالتين اللذيذ ، سمع ضجة، فعرف من البعض أن هناك جملاً لأحد الأعراب ، يتقاولون على نحره واقتسامه ، كعادة أهل القرى الجبلية في طرابلس الغرب من قديم الزمان . فقال الشاب لأحـــدهم : كنت بكرت اليوم لبستان لي بعيد ، للخدمة فيه ، لأنه محتاج للتصليح ، وأشعر بالتعب ، ولكن سأعود إليكم فاذكرني للجماعة .. قال هذا ، ثم وضع « الكنبوت » فأخرج منه حبـــات من بواكر « التين الخضراوي » الملقح ، فتناولها الرجل المسن شاكراً ولسان حاله يقول : غلة ابن الحـــلال ! هنيئاً لأمـــك الصبورة ثبت الله أجر مسعاها ، وهداك للبر بها. ثم أردف : سآخذها إلى حفيدتي لأنها عينة مباركة . قال هذا فأخرج من رباط جرده الأشخم[٢]

---

(١) سلة .

(٢) الاشخم هو الرمادي. أما « الجرد » أو « الحولي » فهو « الحرام » الصوفي الذي يشكل اللباس الوطني للرجل الليبي . وكان ولا زال يصنع محلياً على انواع شتى ومنه الجيد جداً .

النظيف منديلاً كبيراً ربطها فيها وابتعد مسلماً .

وصل ميلود إلى منزله الصغير في وسط القرية والشمس لا تزال واهية الحرارة ، وقرية « أقطرس » القديمة الوجود ، القليلة السكان في الأجيال الأخيرة ، هادئة أكثر من كل وقت ، لذهاب أكثر أهلها إلى موسم التين في بساتينهم المتفرقة على جنبات الأودية القريبة ، وأطراف الجبل المتسلسل .

حيا والدته الوقورة كعادته ، ودخل حجرته ، فكانت والدته جالسة على دكة صغيرة في جانب الفناء النظيف ، تذكر الله وتشكره كعادتها في أيام الجمعة حيث لا عمل لها من أعمال الغزل والنسيج . وبعد الفطور ، وخروج ابنها وقد أكلوا من التين ما سرهم ، قالت الزوجة الشابة لحماتها : ما رأيك يا خالة ، إنني أحبذ الذهاب إلى « الغسيل » والرجوع قبل فوات موعد طهي العشاء فوافقت محبذة ، لأنها أبدلت رداءها الأبيض الوحيد ، وغطاء رأسها ، وعباءتها ، فوضعت كل ذلك أمامها وقالت : في رعاية الله يا بنيتي ! فخرجت الشابة النشيطة مسرورة ، إلى النبع الصغير الذي كان مزدحماً بأمثالها كما هي العادة في أيام الجمع من فصل الصيف .

كانت السيدة سليمة هادئة الطبع وقورة ، طيبة القلب ترملت في سن مبكرة ، ورفضت الزواج ثانياً لئلا تترك وحيدها يتيماً من الجانبين ، فحدبت عليه تربيه وتدير أملاكه المحدودة ، فكانت صناعة الصوف قوام حياتها لأنها امرأة مجدة ، متقنة في عملها .

ولأمر ما أخذها الوجوم فمرت بذاكرتها صفحات الماضي – في ذلك اليوم – فاستعرضتها جميعاً . فكم شقيت بعد زوجها الطيب القلب ! إلى أن بارك الله في وحيدها فأصبح رجلاً وزوجاً وأباً لبضعة أطفال ، وقد اشتهر بحسن السيرة ، والجوار ، قانع ، هانىء البال دائماً ولله الشكر . فوجدت كأن رسالتها قد انتهت وإن كانت لا تزال في ردائد الخمسين وقد عم الشيب شعر رأسها وأخذ جسمها السليم – بعزة الله – يضعف ، وتعجز عن العمل الشاق . ولأمر ما آلمتها هذه الذكريات ، وفي شبه عتاب بينها وبين نفسها ، وجدت : أن ابنها بدأ يتغير كلما تقدمت سنه ، على عكس الأخيار من أهل تلك القرية المعروفة بالطباع الهادئة والخشوع ، هذا بالرغم من أن زوجته لا بأس بها في جميع معاملتها لها كأم مباركة ، إلا أن جفاء ابنها المكبوت ، مع انعدام الأسباب المعقولة ، أخذ يحير قلبها ويعكر نظرتها إلى تلك الحياة القانعة ، ويزهدها في البقاء أكثر . فقد أصبح لا يطيل مجالستها ، ولا يحفل لغيابها أو حضورها ، حتى أشعرها بتلك الوحشة العميقة التي ما كانت تخالج نفسها الطيبة ، فقد كان لها بمثابة كل شيء ، فلولا وجود ابنه البكر محمد البالغ من العمر السابعة ، يبادلها العطف ويكافئها بحبه الملائكي عما ضحت له بشبابها مختارة .. لعدت نفسها غريبة بين العشيرة والأخوال .

وأخيراً ترقرق الدمع في عينيها الكئيبتين ، فكرهت الاستسلام لتلك الهواجس ، فنهضت تمسح ، وتنفض هنا وهناك ، إلى أن حان وقت الظهر . فكان الغداء وخروج الشابة للعين دون أن تخبر زوجها بذلك لقرب المكان وقصر مدة تغيبها عن المنزل واكتفائها برضى حماتها كالعادة . فبينما وقفت السيدة « سليمة » تصلي العصر في « حولي » [1] كنتها الأحمر لطهارته ، دخل ابنها هاتفاً باسم الزوجة فمز عليها أن يراها في ملبس زاهٍ مناف لوقارها وتقشفها ، فبالغت في تغطية أطرافها ، فتقدم وبدون أن يشك في أنها ليست زوجته ، أو يلاحظ قصرها وانحنائها ، مع طول زوجته وانتصاب قامتها وقال : « خذي يا ستي ! لا توريه لوالدتي ! والدتي هذيك النارية تأكل وتشمت بي »!. فلفت يدها فتناولت منه « كدس » اللحم السمين ثم تظاهرت بإتمام الصلاة والإطالة فيها حتى خرج .. فعندئذ نهضت فوضعت اللحم في مكان أمين من القطط ، ثم مشطت شعرها وضفرته على الطريقة المتبعة عند كبيرات السن من سكان الجبال . فلما رجعت كنتها ، تناولت ثيابها منها شاكرة ، داعية لها بالخير العميم وأخبرتها في هدوئها الدائم : أنه أحضر لحم جمل ، فانهضي لإحضار العشاء .. إذ كان العصر

(١) الحولي ثوب يصنع من الصوف ويتخطط بالقطن وتلبسه المرأة الشابة في بيتها فقط .

أذن أو كاد .

***

بينما الشابة منهمكة في عملهـــا نشوانة ، دخلت الأم إلى حجرتها الخاصة ، فلبست رداءها الأبيض وعباءتها من الصوف البيضاء أيضاً و« سباطها » الغدامسي من الجلد الأسود ، وتناولت مغزلاً ولفة من الصوف الممشط ، الصالح للغزل ، الكافي لبضعة أيام ، ثم دخلت إلى مخزن المأكولات ، فأخذت من « قفة » التمر الفزاني الذي اشتراه ابنهـــا من « الفزازنة »[1] الوافدين إلى المركز حسب وصية تلك الأم المـدبرة لاستخراج « الرُّب » الضروري « لعكاك »[2] الزيت والسمن فتناولت حفنة واحدة بيدها اليمنى قائلة : بسم الله ، فوجدتها سبع حبات لا غير ، ثم ملأت إبريقها الصغير ماء ، وخرجت في هدوء دون أن تتنبه لها الشابة ، ولا من في الأزقة الضيقة ، إلى أن مرت بفسحـــة الأرض التي تقع آخر القرية من جهـــة الغابة المملوءة بأشجار الزيتون المعاصرة ، فلمحها حفيدها الذي كان يلعب مع جماعة من أترابه كعادتهم في مساء كل يوم بعد أن يصرفهم فقيه القرية من الكتّاب ، ويخرج محمد معزته الوحيدة إلى تلك الأسناد[3] أحياناً

«١» أهل فزان .

«٢» العكاك جمع عكة وهما القرب الخاصة للزيت والسمن .

«٣» جوانب المرتفعات للصغيرة .

لتأكل مما أبقته حرارة الصيف من كلأ ، فتشبث بها فلم يمكنهـا التخلص منه رغم إرجاعه مراراً إلى جوانب القرية . فقال لها : لن أرجع ، إن ذهابك متـأخرة سيضطرك للمبيت وأنا لا أفارقك ولا يسعني النوم بعيداً عنك . فرافقها وانحدرا إلى الوادي وهي صامتة ، كأنها تضن بالوقت أو تتخطف المسافة إلى ذلك الركن الحبيب الى نفسها منذ طفولتها دون أن تجد لذلك تعليلاً . إنها لم تفكر يوماً ما في مقاضاة أحد ولا التجـــأت لغريب ، أو قريب . فكانوا يستغربون منها تلك العزة الخالصة والانطـواء الكريم .. فكان أخوالها يزورونها في كل مناسبة ونفوسهم مليئة بالخشوع ، ولكنها لم تفكر في ذلك المساء مثلاً في الذهاب إليهم ولو لمبيت ليلة واحدة أو قضاء نهار . شغل الطفل بالمنظر الجميل ، منظر الوادي الطويل ، ذي المجرى الضيق ، وقد كست جوانبه أشجار « القدوم » و « التـــين » وأنواع « السدر » ، في وقت الغروب . واستمر يتبعها ووجهتها المصب الذي كان أعلاه ملتقى لبضعة أودية تنساب من « الظاهر » سفوح الجبال القريبة وأطراف « القبلة » كلما نزلت الأمطار في ربوعها . وقبل أن يتم غروب الشمس بقليل وصلت السيدة تقود حفيدها إلى الدكة الطبيعية الكائنة في تجويف المصب ، فجلست مطمئنة ، تتنفس الصعداء . وفي ذلك السكون المطلق ، وهدوء المساء اللطيف ، سمعت أذان المغرب من مسجد القرية ، فاهتزت له ، وتنهدت في حسرة ، ثم أخرجت التمرات السبع وأفطرت على واحدة ،

إذ كان من عادتها – منذ أن ترملت – أن تصوم يومي الخميس والجمعة ، ثم أعطت التمرات الباقيـــة – وهن ست حبات – لحفيدها . وكذلك فعلت بالماء بعد أن أخذت جرعة فأعطت الطفل الكفاية ، وقامت للصلاة ، وبعد أداء الفريضة جلست تدعو الله وتسترحمه وتتوسل إليه سبحانه وتعالى أن يعز مقام الأمومة فلا يردها على عقبيها . واسترسلت في مناجاتهـا إلى أن حان العشاء فصلته ، ثم فرشت لطفلها طرفاً من « عباءتهـــا » فأخذته في أحضانها كالعادة تقرأ له بعض السور التي يحفظها ، وتسمع منه إلى أن أخذه النعاس فنام رغم ظلام تلك الليـــلة ، ووحشة المكان ، فقد كانت أصوات الثعالب ، والذئاب وكلاب القرية ، تصل إلى مسامعها فتزيد مما بهـــا وهي تحاسب نفسها وتسائل زمانها عما انتهت إليه آمالها ، واطمئنانها ، فكررت تلك الجملة القاسية والدمع ينهمر على خديها : « خذي يا ستي [1] ما توريش لوالدتي ! والدتي هذيك النارية تأكل وتشمت بي ! ! » فرجعت تحصي أعمالها ، وجهادها في سبيله ، تعليمه ، ختانه ، زواجه .. فازدادت آلامها وهي تقول : الحمد لله الذي كتب لنا الصبر الطويل طول السنين الماضية ، وجعل التقصير منه ، بعد ان صار رجلاً .

وأخيراً توكلت على الله وغفت مستريحة الضمير ثابتة العزم

«١» لا تزال هذه الكلمات معروفة لدى سكان الجبل الغربي خاصة .

في هناءة الإيمان ، لأن الله لم يجعل هذا اليوم من تقصيرها هي في في واجباتها كأم أو من نقائص الأمومة المقدسة . فسوف تترك وحيدها يسعد بما شاء وكما يشاء ، لأنها ستسكن هذا الوادي العديم المياه ، لشعورها العميق بصلاحيته لها . مع أنها تكره الاستسقاء من آبار القرية القريبـــة ما دامت حرمت على نفسها دخولها مرة أخرى ، أو السكنى بها بعد ذلك اليوم .

انقضت ثلاثة أيام والسيدة وحفيدها يفطران ويتغديان ويتعشيان من الثمرات السبع فتترك النوى في مكانه فتجده ثمراً .. وكذلك تجد الإبريق الصغير مملوءاً . حتى كان صباح اليوم الرابع ؛ فوجدت النوى كما هو ، كما وجدت الإبريق فارغاً .. ليس به ولو قطرة واحدة تبل بها ريق حفيدهـــا الصغير .. فتألمت في صبر ، واجتهدت في إشغاله باللعب ، والجري ، وهي مستمرة تغزل على حافة الدكة ، وتناجي ربهـــا ، لكن عند اشتداد الظهيرة استفحل العطش بالطفل خاصة فأخذ يلهث ، ويبكي من العطش والجوع ، فعرضت عليه الرجوع لأبويه على أن تتولى هي تشييعه ، ولكنه أبى ، فعاهدها على الصبر معها إلى آخر ما تراه هي ، عندئذ أسندته إلى ركبتها تهدهده لينام ، وهي تمد بقية الصوف خيوطاً مسبحة لله مستغفرة ، فإذا بها تلمس رطوبة في أسفل مغزلها ، فتعيد الكرة في نفس المكان فتتحقق من الأمر . فتنزل ذاكرة إسم الله ، فتعالج الثرى بأناملها الطاهرة ، فإذا بعين فوارة تنبجس بين يديها . فسجدت السيدة في

خشوع شاكرة ربها على نعمائه وإعزازه لقدسية الأمومة من الهوان ، فشربت بيدها ثلاث جرعات والماء يفيض ويكوّن بركة أمام الدكة المختارة . فلما تكاثر الماء وخافت من خطر الفيضان ، حوطت العين بسياج من الثرى ، وهي تقول : باسم الله كفى ، باسم الله كفى . فكف اندفاع الماء . ثم أيقظت طفلها في حنان وسرور قائلة : قم يا بني ! فقد انبثق الماء بفضل الله قريباً منك ، قم اشرب ، واغتسل والعب ، واشكر الله إنه ولي المخلصين . ثم توضأت وصلت ركعتين لبلوغها أمنيتها من الاستقرار في الزاوية التي أحبتها وقصدتها في ساعة اليأس بدون تردد وجلست تدعو والدمع ينهمر من مآقيها ، ونور اليقين يزداد سطوعاً في ملامحها الوقورة : اللهم أعنّي في حياتي الجديدة كما أعنتني سابقاً ، اللهم اغفر لي ولولدي وبارك له في أعماله وذريته ، اللهم لك الحمد أولاً وأخيراً ، اللهم كما هديتني في شبابي ، وصبرتني للنوائب ، قدّس أمومتي وشيخوختي بعد أن تحققت الإهانة ، اللهم بارك إقامتي حيث سخرت لي هذه العين المباركة ، وأكرم مثواي ، وتقبل حسناتي واحشرني مع الصالحين . إنك مجيب قريب .

...

أحضرت الشابة العشاء ، فاستبطأت ابنها ، ثم تذكرت حماتها أيضاً ، فطلبتها عند الجيران على غير عادتها مستغربة خروجها لغير ضرورة ، ولكنها لم تجد للموقف تفسيراً يقنع ضميرها فلما

علم الإبن بخروجها هي للغسيل تذكر غلطته الكبرى فلم يستطع النظر إلى عينيها الكئيبتين ، وقد شعر بالندامة تحرق أحشاءه ولكنه لم يظهر شيئاً . فخرج يبحث عند الأقارب والأحباب ، وخرج أهل القرية يتجولون بين شعاب الزيتون وحنايا الأودية القريبة ، فلم يعثروا على أحد . حتى كان اليوم الرابع حيث تقدم بعض الأطفال الذين يرعون معزاتهم ولمحوا الطفل السعيد يلهو ! فرجعوا إلى القرية بالخبر اليقين . فحضر الإبن مستغفراً ، فوجد أمه قد كنست الدكة وجمعت شيئاً من الحطب تمهيداً للاقامة . فأكدت له بقلب الأم التي لا تعرف الحقد أنها غير غاضبة ولا متذمرة ، وقد رأت لطف الله بها وإكرامه لأمومتها بهذه العين العذبة ، ولذلك لن تغادر مكانها حية أو ميتة !!

ولم يفلح أحد في تغيير خطتها ، وأخيراً قال أحد إخوانها الذين يرون فيها تلك السيدة الطاهرة اللائقة حقاً بالإنزواء عن مضايقة الناس وسفاسفهم ، لن نكرهها على تغيير ما عزمت عليه . بل سنجمع اللوازم لبناء حجرة في المكان الذي تشير عليه في هذا الوادي ، ونرتب لها نفقة شهرية منا ومنك أيها الإبن العاق ! وتعيش بقية أيامها عيشة العباد السعداء إن شاء الله .

●

وبعد مضي مدة قصيرة من الزمن كان كل شيء على ما تحب

السيدة سليمة ، حجرة مشمسة ، قبالة الدكة من اليمين ، ترتفع عن البحيرة التي أصبحت أوسع وأعمق قليلاً . وفي مكان مأمون من خطر انصباب الوادي من أعلى إلى ذلك الركن ليأخذ مجراه الجميل ، نصبت وسط الحجرة منسجها واستراح بالها من كل وجه ، حتى خزانتها قد امتلأت بالغذاء الوفير ، والأواني الكافية لمثلها ، كما جاءوا لها بعزات بارك الله في ضرعها ، منها يشربان ويذبحان ، يتعهدها الطفل عند رجوعه من كتاب القرية إلى أن تعودت السرح والرواح لوحدها ، في حفظ الله ورعايته . وعند الليل تقفل السيدة بابها وتنام هانئة مطمئنة مع طفلها الوفي في حبه لها . شاع الخبر وأخذ الناس بهيبة اعتزازها المقبول وأصبحوا يزورونها جماعات ، ويأتون لها بزكاتهم وصدقاتهم ، ويتبركون بذلك الماء العذب الصافي ، فتكرم هي الوافدين ، وتطعم المسافرين وتبارك خطواتهم حتى لقبوها « أم القِرَب » لسماحة طبعها وجودها المستمر لوجه الله . وكما أمر الله سبحانه وتعالى ونبيه الكريم .

وأخيراً مرض الطفل الوفي مرضاً خفيفاً فتوفي ، فأمرت بدفنه قريباً من البحيرة المباركة ، مظهرة من آيات الصبر والتجلد ما أدهش عارفيها ، رغم ما ألم بها من الوحشة التامة والانفراد ، فسحقتها الكآبة في روعة وجلال ، ولم تعش بعده طويلاً ، فتوفيت ، وأوصت بأن تدفن بجانبه ، في ذلك الركن الحبيب ! فرأى الناس « النور » يشع على ضريحها في ليال متعددة ، فبنوا

عليه مسجد « أم القرب » الشهير ، الذي ازدانت به ضفة الوادي ، وعمر به ركن البحيرة المباركة ، وأخذ الناس يؤمونه من كل صوب ، يذبحون ، بل ينحرون القرابين حسب العادة ، ويقسم ذلك كله على الحاضرين بالسوية ، لا فرق بين الصغير والكبير ، وتكون زيارتها يوم الخميس عادة والإقامة فيها يوم الجمعة غالباً . حتى بلغ اعتناؤهم بتلك الزيارة مبلغاً كبيراً في أواخر الحكم العثماني ، حيث شعر أهل البلاد بشيء من الطمأنينة والسلام الداخلي ، وأصبحت تلك الزيارات من مظاهر الجمال والسرور في درجة تفوق الوصف ؛ يلتقي فيها القريب والبعيد من القبائل والعشائر ، على السواء . ويُترك المسجد في الزيارات العامة للنساء ، ويجلس الرجال إلى فجوات الوادي المقابلة له . وبينما المتطوعات يحضرن الطعام ، نرى الرجال يتسابقون في السباحة ، ومنهم من يقفز إلى البحيرة من أعالي المصب وهو ارتفاع عظيم بالنسبة لسكان الجبال ، البعيدين عن البحر ، وتكون (الزغاريد) على المتفوقين من جانب النساء لا تنقطع .

ومن العادات المستحبة أو الأعمال المباركة ، اشتغال الشابات بتحضير الروائح والبخور ، ليتركن بعض ذلك على قبرها الطاهر ، ليستعمله الزوار عند الحاجة ، كما للفرسان أن يقوموا بأشواط السباق (الركض) قبل النزول إلى الوادي ، وعند مفارقة سفحه ، وإطلاق البارود تكريماً لروحها العالية . وأعم تلك الزيارات كانت في فصل الربيع حيث يكون الوادي في

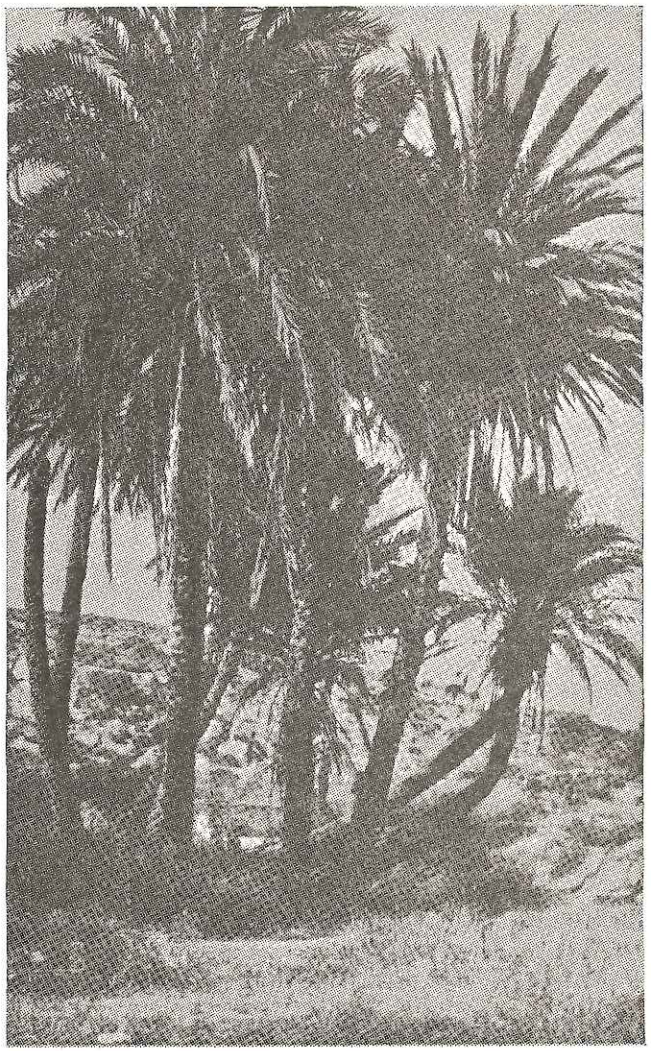

حلله السندسية ، معتدل الهواء ، شافي النسمات ، فيسهل على « المربعين » [1] قصدها . مراحل يسوقها الهناء وحب التبرك ، فأحياناً يصادف ذلك وجود بعض أهل الطرق فيقومون بحضرة خارج المسجد ، ينوه فيها المقصدون بفضل «أم القرب» تنويهاً لا ينكره عليهم أحد ، ومن ذلك قولهم :

يا أم القرب يا للا
يا ساكنة في الوادي .. الخ

وفي السنين الرخية الخصبة بلغ ثمن ما فيهـا من الأواني والأثاث مبلغاً كبيراً لكثرة النذور والهدايا من كل صوب ، فشاهد ذلك الركن المبارك مشاهد فيها فصول رائعة النتائج من « علم النفس » والمعالجة بالعقيدة الراسخة علاجاً يشبه السحر .

ومن أجل ما هناك صفاء تلك البحيرة الصغيرة الضارب لونها للاخضرار والتي لا تجف مهما طـال الجدب أو انقطعت السيول ، والمعتزون ببركات أم القرب يعدونها شاهداً على صفاء قلبها من كل غش طيلة حياتها فإذا دخل ساحتهـا غشاش ما وجرت بعض السرقات تحمر المياه وتطفح على سطحها الديدان الحمراء الدقيقة بكثرة يتعذر معها شربها أو الطبخ منها فيتشفع الناس . ويحرقون البخور ويجدون في إظهار السارق من المجموع . ففي الحال تتلاشى الديدان ويصفو الماء ويصبح رائقاً في لونه

---

(١) هم الذين يخرجون بأغنامهم في ذلك الفصل جماعات .

المائل لخضرة النعيم السرمدي !! فيتنفس الحاضرون الصعداء ويحمدون الله على زوال التذمر عن تلك الروح مما حدث في مقامها المبارك .

ولاتفاقهم على قوة روحانيتها يقولون في ذلك : إنها تظهر لبعض الأصفياء ، والمظلومين في مناسبات يعقبها الخير العميم لأولئك السعداء !!

فسواء صدقنا بهذا أم جاملنا حواشي القومية مجاملة .. فهم يصفونها وصفاً متفقاً في اليقظة والمنام ويقولون جميعاً : إنها ربعة القامة إلى القصر أقرب ، ممتلئة الجسم في غير ترهل ، شأن صحة أهل الجبال من سكان طرابلس الغرب ، سواء كانوا من أصل بربري أو عربي . نورانية الوجه ، بيضاء مشربة بحمرة الصحة المستديمة في ذلك المناخ الصحي النقي ، بيضاء الملبس ، محنية الشعر ، خافتة الصوت ، أقدامها المباركة تشبه تلك الآثار التي يجدها الزائر على بعض الصخور في ذلك الوادي ، كما يجد آثار معزاتها المخصبة .

●

هذه هي « أم القرب » تتغير الأحوال وتتطور البلاد ، وتمر الأيام وتنسى الآثار ، ولكن لا أظن ينقطع بل ينعدم من لا ينادي « يا أم القرب !» مستنجداً بها عند الضائقات ، أو يكره زيارة ذلك الوادي الساكن وركنه الأمين وإن لم يعترف له أو

لساكنته بشيء من البركات ، أو يمل السمع في أويقات من العمر تلك القصائد الإنسانية التي يجيد نظمها المعتزون بأمثالها من الأولياء والصالحين .. قصائد من الذكر الجلي لمقام الروح الإنسانية وعزة نفسها ، والتي تشيد بقدسية الأمومة الليبية منذ أجيال .. إلى آخر ما يكون للانسان من حنين لمجال القومية وأركانها الحبيبة !.

٥

الربيع في الحمادة

حوالى سنة ١٨٨٠ كان موسم الأمطار مبكراً في جهة «القبلة» جنوب طرابلس الغرب فخرج الكثيرون من تلك الجهات من ذوي العدة اللازمة لتلك الأبعاد ، فحرثوا كثيراً ، وعند رجوعهم قرَّ رأي معظم أهل تلك المراعي الدسمة الشهيرة بجودة درها بين سائر البلاد : ليكن موسم « الربيع في الحمادة » ذات المرابع المهمة ، وان شق الوصول إليها على عامة الناس ، وأصحاب الأغنام القليلة ! فما انتصف شهر ديسمبر ببرده الشديد وثلوجه المؤكدة لرخاء تلك السنة التي سنسر الفقير بعد شقائه وتطمئن قلب المحتاج ، حتى عمَّ التأهب ؛ فبدأت «المراحل»[١] تقصد الحمادة من جميع الجهات . فينزلون منازل عديدة ثم يتابعون السير على هون لئلا تتعب الماشية أو تتأذى الأغنام ، خصوصاً المواليد الجديدة . وكانت هذه المراحل تأتي غالباً من

(١) جمع مرحول ويقصد بذلك جماعة تتفق على قضاء الربيع مع بعضها وكان لاتفاقاتهم إذ ذاك قيمة ونتائج اجتماعية مشرفة للغاية .

البلاد التي ما بين « نالوت » على الحدود الغربية ، ومن حدود غريان وترهونة وما جاورها من المراكز الشرقية والوسطى ، وكلها من الأسر المقتدرة . وفي أوائل فبراير تقاربت الجموع من أصحاب تلك الزروع في الحمادة الحمراء من محلها المقصود من تلك الفيافي حول بركة « الواعسة »[١] العظيمة الشهرة . فأخذوا ينزلون على مسافات مختلفة من تلك البحيرة الرائعة ، المتكونة من السيول المتوالية ، فكأنها مقياس الخصب الصحيح لسنوات الخير في الحمادة الحمراء خاصة . ومما يتناقله أهل طرابلس الغرب بين الأمثال السائرة ، أن بعضهم لقي جماعة من «الكعدان »[٢] يرقصون طرباً وهم في طريقهم إلى الحمادة في أوائل الشتاء، فقال لهم : « وين ماشين يا كعدان ؟؟ » فأجابوا في نشوة :عند الكلخ (والكلخ من أعشاب الحمادة الدسمة) . وبعد أربعة أشهر سمن فيها الكعدان من أكل الكلخ وحفت أقدامهم من كثرة الحصى المسنون ، رجعوا في طريقهم المحرق لشدة حرارة الشمس ، يظلعون ، ويئنون من ألم انسلاخ أقدامهم السمينة فقال لهم صاحبهم : وين كنتم يا كعدان ؟ فقالوا في ألم وتجربة ، وخطر تشقق السنام السمين من وهج الشمس يهددهم : « كنا عند السلخ والملخ !! » .

أما جوانب « الواعسة » فتتزركش في مثل تلك السنة

(١) هي بحيرة مشهورة تتكون من مياه الامطار في السنوات الممطرة وتفيد المربعين بقربها في الصيف .

(٢) أصلها قعدان جمع قعود ويقصد به البعير الصغير .

٢

الكرامة الحقة [١]

عاد المجاهدون بتهاليلهم وأهازيجهم الشجية ، تتقدمهم « الموسيقى الوطنية » وصيحات السرور ، وزغاريد التشجيع تشق عنان السماء وتجعل لتلك « المعسكرات » الزاخرة بالإيمان والإخلاص معنى غير المعنى الذي يراه بها أعداؤهم المغيرون. فانتشرت جحافل المساء المعتدل النسمات على تلك الرمال الناعمة ، تهنىء الضمائر الحرة ، وتثبت فيها « مغارس الكرامة الحقة وحب الوطن العزيز » .

وبعد الاستعراض المعتاد ، عند رجوعهم من المواقع ، تفرقوا إلى معسكراتهم المتقاربة ، يجددون نوبة الحراسة ، ويؤدون فريضة صلاة العشاء جماعات سعيدة وكلهم يفيض بهجة وفخاراً. ثم انصرفوا يردون الزيارات بعضهم لبعض ، ويسمرون إلى هزيع من الليل ، في مجالس لا تخلو من شاعر مجيد ، يسرد أخبار الجهاد المقدس ، ويصف عظمة النفس العربية المسلمة على أنغام الطبول ؛

(١) الكرامة الحقة موضوع تاريخي واقعي وقصة صادقة عن الجهاد الليبي سنة ١٩١٢ الى ١٩١٣ م ، رحم الله المخلصين.

ويحتسون أقداح الشاي الساخن وكأنهم يحتسون كؤوس النصر الموعود بها أمثالهم من المخلصين .

تلك هي معسكرات « عين زاره » الكبرى ، حيث غصت بالمجاهدين الوافدين من كل ناحية من نواحي البلاد . وقد زخرت صفوفها بالشباب ، والقوة والإقدام على الواجب ، إقدام الفدائي الواحد .

كانت « خيمة » كبيرة تتوسط المحل قد أضيئت بفنارات (فوانيس) كبيرة من الغاز ، وفُرشت بالبسط الجميلة ووضعت فيها الوسائد الكثيرة الجلدية الملونة من صنع « غدامس » . ووقف حولها حراس من المجاهدين بسلاحهم ، مرفوعي الرؤوس ؛ وكانت الخيمة مكتظة بشخصيات وطنية يتجلى فيها العزم والوقار ، ويجمعها إيمان خالص عميق . وهم من كل بلد ، ومن كل صوب ، في مختلف الأعمار ، تلك هي : خيمة الاجتماعات في تلك القيادة ، وقد جلس الكل ينتظرون دخول ضيوفهم ، بل إخوانهم الواصلين لساحة الجهاد المقدس تواً — بعد أن سبقهم رسولهم المبشر قبل ساعات .

فقال أحدهم : انصتوا لمن ينشد بصوت حماسي ؛ وكان الصوت في نغمته الليبية الخالصة يهز الأركان قائلاً :

« إستحشت بن آدم أو رملة زاره
أو مدفع ضرب بالكور والغباره

استحشت ضرب الكافر

واسبيب عقد زي السيل جا يطّافر »

قال آخر : « أيوه ونحن فيها !! » فقال ثان وهو ينظر إلى أحد الزعماء : أراك مفكراً ، كأنك تأثرت لموت ذلك الشاب المريض ؟ فلم يمهله بل أجاب :

« كلا لم أتأثر عليه زيادة عن غيره ، ولكن أعجبني إخلاصه في نية الجهاد ! وقوله وهو يسلم الروح وقد أمسك بيدي : « بالله عليك أتصح شهادتي ، ويقبل مني هذا الاستشهاد على فراش المرض ؟؟ بشرني وربك ! إني عندما غادرت بلدتي — رغماً عن أبوي — إذ أغلقا باب المنزل بعد أن أعطيا « البدل » ذهباً ! علوت السطح فقلت لأمي : أريد الجنة يا أماه ! فقالت لي : بنيّ ! كن مجاهداً بمالك وطاعتك لأبويك . قلت لها : إني عقدت النية فلا تحولي بيني وبين ساحة الخلود !! فكيف الآن ؟؟ أتراني عصيتهم وحرمني الله مما انتويت ؟؟ أم ضعفت ولم أفِ بعهدي تاماً ؟؟ ».

فقلت له : هوّن عليك ؛ أليست الأعمال بالنيات ؟؟ قال وقد بدأته حشرجة الموت : نويت الشهادة في سبيل الله . فقلت له : ذلك ما سيثبت لك إن شاء الله ، فنم هنيئاً .. فكم راعني ما تجلى على محياه من النور ؛ فجلل ذبوله المحزن ، وافتر ثغره عن ابتسامة الرضى والسرور وقال وهو يضغط على يدي : « أبشرك بالنصر النهائي ونجاة شرفنا القومي من هوان العبودية » ! ثم نطق

معي بالشهادة حسب إشارتي وأسلم الروح » !.

وبعد سكوت قصير استأنف الزعيم كلامه بصوت جهوري ينم عن طيبة نفس وشجاعة ، ومحبة للوطن لا تحد : « إن صفحات جهادنا مجيدة ، ونادرة والحمد لله . أنسيتم الشاب الذي استشهد عند وصوله إلى « سواني بن آدم » وأسرعنا إليه بين دوي المدافع ورصاص البنادق ، فوجدناه منطرحاً ودماؤه الغزيرة تسيل من جرحه المميت وهو يقول لاهثاً : « بالله عليكم هنوني ، هنوني ! اثبتوا والله معكم أيها الأسود !! » لقد مات ويده المرتعشة في يدي .. فليتني سعدت بمعرفته قبل الاستشهاد ! إذ يظهر عليه أنه أسد مغوار ...

فقال الجميع : نعم ، رحمه الله . فاسترسل الزعيم يقول : إن الرسائل الواردة من الخارج تشهد بمقدار تقدير الناس لهذا الصمود ، ولكن .. — فقال أحدهم : ولكن ماذا ؟ ألم ترتح نفسك لشجاعتنا وإقدامنا في صبر وإيمان ؟ فانتفض الزعيم في تؤدة لأنه كان يثق في إخلاص مواطنيه وأجاب : « كلا ! بل إني جد مسرور وفخور كما يسعدني التفاؤل بما نكتبه من صفحات البطولة الصادقة ، إنما أدعو الله أن يمدنا سبحانه وتعالى بعونه لنثبت حتى النصر .. » .

ولم يتم جملته إذ دخل الحاجب فأخبر بقدوم الضيوف قائلاً : سيدي ، جماعة مشايخ القبلة ! فهب الجميع يتقدمهم

الزعماء ورئيسهم إلى خارج الخيمة يرحبون بإخوانهم : « أهلاً وسهلاً . . مرحباً مرحباً ، تفضلوا . شرفتمـــونا ، ينصرنا بيكم » .. الخ .

فتقدمت الجماعة المؤلفة من شخصيات تمثل في الحقيقة زعامة الجنوب البدوية ، المملوءة بطبائع الورع والتقشف ، يضيء تلك الوجوه السمراء نور الإيمان الصحيح ، فكان أكثرهم في ثياب بيضاء وتعلو رؤوسهم العمائم الناصعة الصغيرة ، كأنها « هالات » من نور المهابة والجلال الإسلامي الصادق . أجلسوهم في صـــدر المكان ، فدار الحديث المعتاد في مثل تلك المجالس الكريمة إلى أن رجع الكلام إلى موضوع الأمل في الانتصار على العدو . .الخ فقال أحدهم : إن الله لن يفرط فينا ، إن شجاعتنـــا ببركة الصالحين ستقهر أعداءنا وتخلصنا من شرهم . قال آخر والشجاعة تتوقد في نظراته الثاقبة : إن جهادنا في سبيل الدين والوطن لا مثيل له في هذا العصر !! وقد ظن العالم أننا سنسلم قيـادنا إلى العدو من أول يوم ، وعند القنبلة الأولى . .فإذا جيوشناوالحمد لله تنساب في بسالة لا تقدر ، وتتجمع من أقاصي « فزان » إلى السواحل عامة ؛ فتؤلف المعسكرات المنظمة الهائلة [1] مما حيّر العدو ، وتركه يجادل بعضه بعضاً في نتيجة هذا العجب ، أمـة

---

(١) كان زمن هذه القصة سنة ١٩١٢ م عند تشكيل الحكومة الوطنية عقب انسحاب العثمانيين وتعاهد المجاهدين على الصمود .

كبيرة بعدّها وعددها يصمد أمامها قوم عراة الأقدام يتقاضون في بعض الأحيان فريضة الجنـــدية (دقيقاً) . فقال غيره : « ببركة الصالحين » ! فردّ كبراء المجلس الذين كانوا من العلمـاء : كل ذلك من فضل الله سبحانه وتعالى .. قال آخر : إن التكبيرة المؤثرة التي يطلقها المجاهدون عند الهجوم لعظيمة الأثر فيهم .. وقد رأيت هذا بعيني عندما أمرت بالتقدم قبل معركة «المنشية» فبقيت قريباً إلى أن وصل المجاهدون مكبرين ، فرأيت كيف كان قائدهم[1] يجري هنا وهناك على غير هدى ؛ ولم يستجمع قواه إلا بعد أن قرّبوا له جواده ، فقصد مأمناً للقيادة ... وتكلم آخر من أهل الجنوب : لن تغيب البركات إن شاء الله ، فما ذلك إلا لكرامة أوليائنا الصالحين ، وسرهم المقبول ، ألا تذكرون أن كل جيش من جيوشنا لا يغادر مركزه حتى يزور المساجـــد ، ويعطي الفاتحة ، ويقبل تشجيعات المودعين ؟ من منكم شاهد دخـول المجاهدين من المنطقة الشرقية لساحة الولي الكبير « سيدي عبد السلام الأسمر » ؟ فأجاب البعض : رأينـا ، وحضرنا ! قال : فهل ترون تلك الصيحات المنبعثة من الأعماق تذهب سدى ؟؟ إنها توسلات حارة تهز المكان هزاً .. فكلما صاح الجميع « يا الله يا ناصر الحق .. يا سيدي عبد السلام ! يا لسمر .. في ساحتك المباركة ندعو ونكبّر » ، فارت دمـــاء الحماسة في القلوب وتمنى الإنسان أن يكون معهم ويستشهد سعيداً ، أو يبلو

(١) القائد الايطالي .

بلاءً يتبعه النصر الأخير ! قال آخر : نعم ! انتصاراتنـا من الكرامات الخفية ! .

هنا دخل الخيمة رجل أسمر ملثم ، فجلس بعـــد السلام الخـافت ، فظن أهـــل الخيمة أنـه من جماعـة إخوانهم أهل الجنوب . وبينما كان أحد العلماء يقول : إننا نحترم مشايخنا وأولياءنا ولا نهزأ بطرقنا ! أليس كذلك يا حضرة الشيخ ؟ قال الزعيم : نعم ! لكل أمة تقاليدها ، ولكل بلد عاداتها ، والأمة العربية الإسلامية كلها بعضها من بعض ، وكيف بأهـــل هذا البلد العزيز ؟ فمـا الداعي للاستخفاف أو التعجب ، خصوصاً بعد أن جمعنا واجب الجهاد المقدس ؟ ومن فضائل هذا الاحتشاد ، تعارف أهل الوطن ، واطمئنانهم لعادات بعضهم البعض !

قال زعيم أهل الجنوب : إذاً ما هو جوابنـــا لمن يقول : ما هي الكرامة الخفية لهذا الصمود المجيد ؟ والآمال الشاسعة في النصر الموعود ؟

هنا لم يمهلهم الضيف الأخـير فرفع رأسه المطرق وأزال « لثامه » عن وجهه قليلاً ثم قال بصوت هادىء استجلب أنظار الجالسين : إن سؤالك عزيز يا سيدي الشيخ أحمد ! ويسرني أن يكون جوابي بما أراه .. نعم كما أراه أنا لأن الواجب حتم علينا التعاون ولو روحياً .. وسؤال مثلك من المواطنين الأجلاء لا يُترك بدون جواب روحي .. وقد تجاوبت آيات الوطنيـــة

الكامنة في الأرجاء فأقول أيها السادة : لنقل لأولئك إننا صمدنا وانتصرنا مراراً بإذن الله ، وسننتصر للنهاية كما قال المولى عز وجل في كتابه العزيز وكما ورد في أحاديث نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم . أما الكرامة الخفية في هذه المواقف المخلدة بارك الله فيكم فهي إخلاصنا في الجهاد ، وصدقنا في الثبات ، ويقيننا في الإخاء ، وترفعنا عن حب الذات ، وإيثارنا الوطن عن كل شيء ، وائتلافنا للخير ، وتضامننا للسعادة في الدارين ؛ كما أوصانا نبينا العظيم .. في إيماننا الصحيح وأعمالنا ، وثباتنا المجيد وكرامة جهادنا الخفية .. في كل هذا ، فلنثبت أيها الإخوان إلى النهاية . لنتحمل الجوع والعطش في سبيل الله والمبدأ القويم ، لنفدِ الأوطان بالأرواح فإذا انتصرنا النصر المنشود فذاك جزاء المخلصين ، وإن عجزنا .. (فأتم عنه أحد المشايخ) : « الملك لله » فقال في حزم وإيمان : « يؤتيه من يشاء » . . وبعد أن سكت دقيقة قال وهو يرد لثامه كما كان ويطرق : تلك هي الكرامة الخفية . فقبل أن يجيبوا برأيهم الوقور دخل الخادم بصينية فاخرة بها أنواع الحلوى ، فوضعها بين يدي الجمع .. فهتف الزعيم في حرارة وتواضع : « تفضلوا !. » وقرَّبها لكبير الجماعة ثم أعاد كلمات الإكرام ، وأخذ قطعة فاخرة من الحلوى وقدمها اليه قائلاً : إنها من هدايا إخواننا من الشرق والغرب ! كلها مصنوعات إسلامية لا شك فيها ...

فتناولها الشيخ باسماً في اطمئنان وهو يشير على رفقائه أيضاً

ويقول : بارك الله في الجميع ! كل هذا من الكرامات الخفية .. فالتفت صاحب الخيمة ليدعو الضيف الجديد فلم يجده ، فظن أنه خرج للساحة لضرورة .

وبعد انصراف الجماعة إلى معسكرهم الخاص مشيعين بأحسن ما قوبلوا به من حفاوة وإجلال ، سأل الزعيم خادمه قائلاً : « لماذا خرج الرجل الأخير ؛ أكان من جماعة القبلة ؟؟ ولكن الخادم وكذلك الحراس لم يفهموا أي رجل يقصد !! وبعد أخذ ورد اعترف الذين في خارج الخيمة بأنهم لم يدخلوا أحداً ما غريباً عن الجماعة وأهل المعسكر ، ولا علموا بوجود أي رجل في تلك الصفة التي وصفها ، وأنهم يعرفون من الجماعة الأسماء والألقاب !! .

وأخيراً ابتسم الزعيم وهو يتوجه إلى خيمته المتواضعة قائلاً : لا بأس عليكم ! إنني لم أشك في يقظتكم وإخلاصكم إنما تأسفت على عدم إكرام ذلك الشخص مما وضعناه ، وقد يظن أني احتقرته ، مع أني لا أعرف — والحمد لله — لاحتقار الضيف من معنى .. ثم ضحك ضحكة الآمل المتمني من الله وحده وقال مازحاً : لا تتوجسوا !! إنه لن يكون جاسوساً قط !! إنه من أصحاب الكرامات الخفية ، فليته يزورنا في كل حين .. ويشجع أو يثبت لنا الكرامة الكبرى بخروج العدو إلى البحر مدحوراً .

كان الخادم الرقيق متدرباً على خدمة الكبراء وحراسة عظماء البلاد منذ طفولتـــه متعوداً على النشاط الذي يرضيهم وقد اكتسب الحمد من الجميع قبل الحرب وبعده ، بل تعلم الصمود لكل مكروه لملازمة «سيده» البطل النبيل في الآونة الأخيرة ، وأخلص له إخلاصاً عميقاً ،رغم أنه كان رجلاً أمياً ممن يفكرون في مصلحة أسرهم وعاقبة ذلك النضال من الوجهة الاقتصادية . فقال في أدب : بل ما يملأ المخازن بالخيرات يا سيدي ! لنرضي من في البيوت ! ولنتسلح بأكثر مما تسلح لنا عدونا اللعـــين ! قال هذا وحمل سراجاً ليتقدم به سيده الذي قال لهم : انظروا إلى العملاق المدعي الشجاعة !! إنك أصبت يا « محمـــد » ونطقت بأمنية الأكثرية . مع العلم بأنك من أخلصهم .. فسوف تنتقل قدسية الجهاد في أعماقك من وظيفة مقابل مقررات إلى عقيدة راسخة فيهون عليك الفقر وفراغ المخازن .. فقال الخادم وقد افتر فمه عن ابتسامة صادقة أنارت سواد وجهه المقبول: سيدي، أرجو أن لا أكون قد تعديت .. إنك يا سيدي أعلم بصراحتي إذ عودتني الإخاء الحقيقي ، فأنا كما تعلم — والله شهيـــد — قد عاهـدت النفس بأن لا أتركك إلى أن تترك ميدان الكفاح المجيد ولو بقيت معك وحدي !!. فربت سيده على كتفه العريضة وقال في جد : لا شك يا محمد ، لا شك ! ثم استدرك وهو يدخل الخيمة : إن شاء الله تعالى أيها الصديق ، إن

شاء الله !

***

بعد سنتين وقف المجاهد يناول رفيقه بعض ما تبقى لديه من الأشياء الخاصة ، وهم يرحلون عن « جندوبة » ، وقد انفرط عقد المجاهدين .. والخادم يكفكف دموعه السخينة ويهمس في ألم عميق وحسرة جارفة : سيدي ، أصبحت لا أطيق فراقك ! إن فشل القضية وفشلي في اللحاق بك إلى حيث يسلمك الله ، مصيبة مزدوجة في نفسي ، لأترك أهلي وبناتي في رعاية إخوتي ولأذهب معك خادماً أميناً لك في ميادين جهادك في سبيل الله والوطن !!إنك علمتني معنى التضحيـة حتى تذوقتهـا في ركابك!!إنك ثابت مخلص ! فدعني أثبت معك وأخلص في خدمتك لله .

هز الزعيم رأسه باسماً رغم الكآبة الجاثمة على قلبه الكبير ورفع إليه بصره المهيب ، وأنامله تمر على وجهه الأغبر من جهاد مرير مدة سنتين — فكأنه يزيل بعض آثار همومه وقال : لا يا محمد ! لا يا محمد ! إنك وفيت بما وعدت إلى هـذه الساعة .. وهأنذا في الميدان المظلم وحدي .. فلا أريد منـــك أكثر .. يكفيك ما تحملت ، يكفي الجميع ما قاسوه من شقاء . جزاكم الله عن الدين والوطن خير الجزاء . أما أنا فكما تعلم ، على عهدي

بإذن الله !!. ثم أردف في حزمه وعزمه المعتاد : إني سأعمل ! سأجاهد أيها الصديق ما حييت ! فادعُ لي بإخلاصك أن أوفق فيما عزمت عليه .. فرفع الخادم صوته المبحوح وبصره يتجه إلى السماء المظلمة كأنه يفتش عن النجوم الغائرة لأمر ما ، مكرراً قوله : إلهي ! أين رحمتك الواسعة ؟ أين نصرك الموعود ؟ أين الكرامات الخفية ؟ أهذه مكافأة المخلصين ؟ اللهم ارحم واحفظ هذا المخلوق العزيز لديّ ، لصدقه وحنانه وشهامته ! إلهي خذ بيده !

وكانت الدموع تنهمر من عينيه . فقال سيده المجاهد[1] : الكرامة الباقية الآن هو أن لا يشمت العدو في شرفكم . وأن تعرفوا كيف تتسلحون لهمة دير .. وقد نلتقي يا محمد في ساحة الشرف من جديد .

فقال الخادم وأصوات المدافع الجائرة تقترب وتكبت أنفاس الحرية الثمينة في كل شيء : أرجو أن يكون ذلك وأن تستطيع الآن أنت يا مولاي النجاة مع هؤلاء النفر الخمسة عشر إلى الحدود الغربية .

ثم ركبوا وليس معهم سوى إيمانهم بالله الذي وعد المؤمنين النصر ولو بعد حين ، وتقديسهم للواجب في سبيل الحق والوطن العزيز ..

(١) كان هذا المجاهد سليمان بن عبدالله الباروني ورفيقه الامين محمد بن مرزوق الشوشان من جادو ، وقد التقيت به بعد ذلك وسمعت منه كل ما صدقه المرحوم الباروني مزكياً له بقوله : (انه من الصادقين) .

٣

الأب الحكيم

استمر هطول الأمطار الغزيرة وجلجلة الرعود ثلاثة أيام بلياليها ، فتسرب الخوف إلى سكان « مغمداس »[1] الصغيرة ، وتملكهم الهلع الشديد عندما بدأت بعض المنازل القريبة من السور تتداعى للسقوط ، وهو الأمر الذي لا يستغرب لأن بنيانها من « ضرب الباب » — الطين النيء المكسو بطبقة من الجير .

خرج الرجال من باب المدينة الحصين ليختاروا المحل المناسب لمخيمهم ، ليتجهوا إليه بما خف حمله وغلا ثمنه . وأخيراً بدأوا في الانتقال وهم يتشفعون بأوثانهم المختلفة من هذا الخطر الكبير ، فغادروا المدينة ، إلا بعض الحراس الذين رتبهم كبيرهم ليحافظوا على جانب سوق الصاغة بصفة خاصة .

فاجتمعت بعض الأمهات فدخلن المعبد يتضرعن بحرارة

(١) مغمداس: المقصود منها مدينة غدامس الموجودة حتى الآن . ويقال كذلك ان كلمة مغمداس مغلوطة فالصحيحة غداموس .

ويتمسحن بالتماثيل الكبيرة ،فجرى واحد من اليهود المستوطنين في تلك المدينة الشهيرة بين مدن الصحراء بوداعة أهلهـــا ، ومهارتهم في التجارة ،وصناعة الجلود ، وصياغة الفضة والذهب ، فنظر إلى جماعات المتضرعين هازئاً وهو يحمل « خرجاً » كبيراً أودعه كل ما عنده من حلى وقطع ثمينة :

« لو أسرعتم للنجاة بنفوسكم لكان أصوب ! فما أرى هذه الدمى والأوثان بنافعة إن لم يرحمنا رب السماء » !

فانتهره أحد المارة . ولكنه استمر غير مبالٍ :أؤكد لكم أنها لا تنفع ! إن جدران مدينتنا القديمة مهددة هـذه المرة ، والطوفان لن ينتهي بخير عليها إن لم تكتب لنا النجـاة ، فقد فرطتم في الوقت فلنسرع .

هنا زمجر به كبير من أعيان المدينة وهو يجر كبشاً سميناً : « إني نذرت بهذا للنصب الأكبر ، وسأوفي بنذري عندما نعود بذريتنا سالمين من الطوفان الفظيع فقل ما شئت أيها المشاغب ! سوف أحرض عليك أولي الأمر ليسلبوك العهد الذي قطعوه مع أبيك لسكنى هذه المدينة الآمنة ، وتزعم طائفتك الساحرة..»

بين هطول الأمطار التي أصبحت كأفواه القرب ، اطمأن أهل « مغمداس » إلى ربوة عالية من الصحراء القريبة المنبسطة حول المدينة ، ورغم أن الرمال تبتلع المياه بسرعة ، فإن

الأودية تكونت بشدة فخربت البساتين والمزارع وحملت من الحيوانات الشيء الكثير ، فقضوا الليل في خيامهم « الجلدية » الفاخرة ، المعدة لهذا الغرض وقد علقوا في وسطها قناديل من النحاس يستعملونها في مدينتهم المسقوفة الشكل ، دون مدن الصحراء الليبية ، تلك السقوف الواقية لهم من لفحات الهجير في تلك المناطق الجنوبية ، فكم كانت نظيفة ،منظمة ، يكاد أهلها يعدون آمنين من معظم الأخطار لولا فظاعة ما تخلفه السنون الممطرة من أضرار في الأموال والأرواح .

لم تهدأ العاصفة ولا توقفت السيول أسبوعاً كاملاً ، حتى غدت الصحراء مجموعة من الوديان الجارية ، تذهب بكل ما تصادفه بدون هوادة ، والمغمداسيون في خيامهم الجميلة يشربون مياه السماء بدل مياه ينبوعهم الشافي بسخونة مياهه لحد الغليان ، ويزاولون أعمالهم في صناعة الجلود البديعة ، ويسمرون إلى هزيع من الليل ، يغنون أغانيهم الشجية ، ويقصون الحكايات الغريبة عن ملوكهم المتجددين على الدوام .

وفي الليلة الأخيرة —وكانت العاصفة قد بدأت تهدأ والسيول تجف ، وخطر الانهيار في المدينة يقف عند حده — جلس جماعة من الكبراء — رجالاً ونساء — يتجاذبون أطراف الحديث ، ومعهم رئيس الطائفة اليهودية ، فلاحظ الرئيس انقباضاً على وجه ذلك الصائغ الحاذق ، فسأله عما يكدره وقد أزالت قوة الأوثان

الخطر عن مدينتهم وسوق الصياغين خاصة . وبينما تمتم اليهودي بجملة الشكر متقطعة ، قال صاحب النذر :

« إني حلفت بالصنم الأكبر لأشكرنه لجماعتكم ،ألا تصغون؟ قالوا : لا نصغي لحقد ، إنما كل ما نعلمه أنك مازح وقد اطمأن قلبك ، فعاودتك طبيعتك الأساسية ، فما « ناتان » ممن يشكى منهم ! إنه ابن « يوسيف »الذي احترمه آباؤنا جميعاً ، ولم تدر حوله شبهة واحدة طوال حياته ؛ ثم أخذوا يغيّرون مجرى الحديث إلى أن يئس صاحب الكبش . فسكت على مضض .

ذهب السمار وخلت الخيمة حول الرئيس ، فقالت له ابنته وهي تلف « منطقة » جلدية طرّزتها وأصلحت أطرافها :

أتسمح لي يا أبت في سؤالك !! وكان متكئاً على وسادة غاية في النفاسة ، فأشار عليها أن تتكلم وتسأل ما تشاء ، فأصلحت مطارفها الملونة وانحنت تقول :

إن « ناتان » حزين اليوم حزناً لم يتمكن من إخفائه فهو لا شك خائف ، نقيض ابن عمنا « النصراني » الذي يكاد يقر الجميع بإخلاصه لدين أجدادنا ؛ فما رأيك ؟؟

أترى ناتان ساحراً ؟ وابن عمنا مشعوذاً ؟؟ وفي الحقيقة إن توقف العاصفة جاء من شيء غير شفاعة ما عندنا من أوثان في كل زاوية ؟!

غطى الأب الكهل عينيه بكفيه هنيهة وهو يبتسم راضياً من نجوى ابنته ، وإن كان هاله بعض الشيء هذا التفكير العميق منها ، فتردد أولاً في الجواب ؛ ثم قال في صوت رزين : بنيتي ! إن لي أمنية واحدة .. فسألته متلهفة : فما هي يا أبت ؟ قال : أن أبوح لأولادي بما أراه وأشعر به في خلوة حبيبة ، إني ناجيت بها نفسي كثيراً ، ولمحت بها بعض التلميح لأمك عقب سفرتي الطويلة شرقاً . ولكن لا زلت أشك في شيء واحد .

فقالت مهتمة : فما هو ذلك الشيء يا أبت ؟

قال : مقدار استعدادكم لما سألقيه عليكم من رأي بل وصية . فوثبت تركع أمامه وتقبل ركبتيه مؤكدة : إني سامعة ، إني واثقة من حكمتك يا أبي ، إني محتاجة لفيض هذه الحكمة التي أجلّها صادقة .

قال : ادعي أخويك ، وأمك دون لفت أنظار الجيران .

أصلحت الأم القنديل ، ووضعت الوسائد لأولادها ،فجلسوا يصغون في ثقة لا تحد ، فقال ذلك الأب الحكيم: إن سفرتي لشرق هذه الدنيا أطلعتني على أناس يعبدون ما نعبد ، وأناس أقل منا اهتماماً بالعبادة ، كما جعلتني أتعرف لمحلات يقيم فيها أناس من النصارى يسمونها « الأديرة » ومحلات يتعبد فيها اليهود يسمونها « كنائس » فكم هالني المديح في مدينة « لبدة » العظيمة ، ولكنني لم أعجب به إعجابي بجماعات اليهود الذين

يصلون وليس أمامهم شيء ولا احترمت كاهن « لبدة » القليل الكلام ، احترامي لراهب في واحة «سيوه » وسط الصحراء. فقضيت الأشهر ، أدرس ، وأتفهم ، فرأيت نفسي تميل إلى شيء واحد .. فسأله ابنه الأكبر المعروف بالبر والانصياع لأبويه وقد رأى«لبدة» مراراً وعاش في مدينة «سيرينا»العجيبةالتشييد سنة كاملة ، ولكن كثرة مشاغله لم تدعه يدرس شيئاً فعاد كما هو : شاب صحراوي صميم !

قال الأب : لاعتناق دين جديد أوفى وأتم معنى مما رأيت وسمعت ! الدين الذي وجدت اليهود تقول به،والنصارى تؤكده وتسميه !!

ضحكت الزوجة في شبه نعاس وهي تقول :

أنت الذي لم تلتفت لدين أجدادك السائد ، ولا أقنعتك التعاليم التي درستها من « دير » إلى « كنيسة » ، تميل لدين جديد ؟؟

قال : نعم ، اميل إليه لأن دراسة ما قلت لكم هيأتني لأن أميل إلى ذلك الدين الجديد لو عاصرته .. ولكن سوف لا أحضره .. فأوصيكم وصية الأب الشفوق أن تهيئوا نفوسكم لتلك النعمة البشرية ! دين سوف لا يترك فتحة لصنم أو حيلة لكاهن يستحب تقديم القرابين البشرية لما لا نعلمه .. ولا

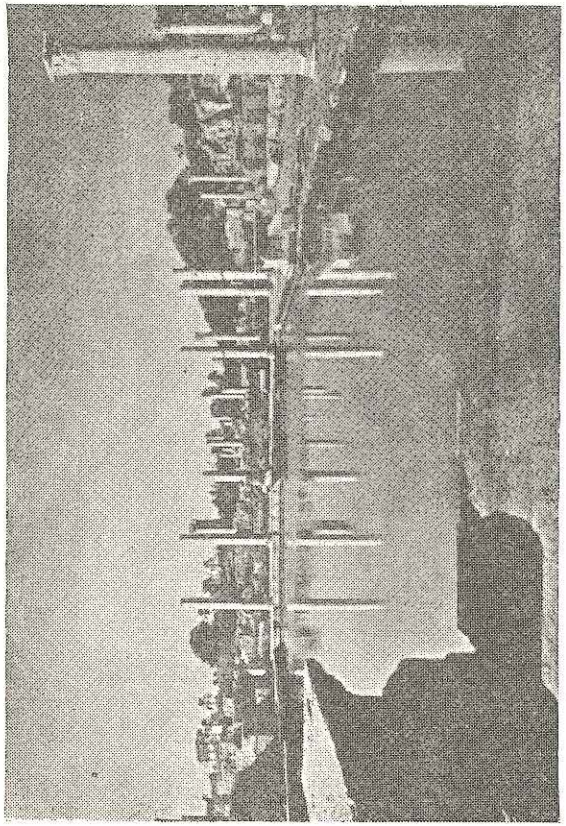

أطلال « لبدة » الخالدة

يعلمه هو نفسه ! أخفوا هذا . فلنعتقد خيراً ، وعيشوا أمناء والأمانة نوع من الأديان وإن غداً لناظره قريب .

قال الإبن الأصغر وكان يعرف بعض اللغات الأجنبية : إني سمعت مرة من روماني متوسط في « ودان » أن عرّافاً تكهن بمجيء قوم من الشرق ينشرون نقماً شديدة . هزّ الأب يده نافياً وقال : لا تصدق ! أوصيكم أن لا تحاربوا ذلك الذي يسميه الكاهن « نقمة » ! فعاهدوه جميعاً واثقين . فقالت الأم بين الشك واليقين: إذا صدقت في قولك هذا فأنت حكيم ، وقالت البنت فخورة : إنه حكيم وصادق، وإن طال الزمان ، ما دامت أصنامنا لا تجدي في هذا الطوفان نفعاً ، فلا بد من شيء أقدر منها وأرحم .

سنسأل عنه ، ونتبعه كما عاهدناك !

٤

نخوة عربية (١)

طاف « الزواغبي» الشيخ في شوارع المدينة العظيمة متوكئاً على عكازة غليظة — وقاراً لا عجزاً — وهو يقول لهم مبشراً : زال الخوف ، وعجز المعتدون ، فلا حاجة للارتباك ، وزاولوا أعمالكم وافتحوا الأبواب ، سرّحوا المواشي والأغنام ، فيكفيها ما لاقت من حبس وجوع . هذا أمر كبرائكم وما اتفقوا عليه ..

فنهض الحراس إلى باب المدينة العظيم يفتحونه ، وقد دبّت حركة سريعة في جوانب المدينة ، كما علت صيحات السرور من هنا وهناك تستقبل الصباح السعيد في ساعاته المبكرة . في أثناء تلك الجلبة خرج غلام كبير يسوق أبقاراً وقد أخذ بمقود ثور هائل ، أسود اللون ، وهو يحدث طفلاً في نحو السابعة من عمره

---

(١) هذه القصة خاصة بظروف فتح المسلمين لطرابلس إذ سقطت زواغة قبل طرابلس أي فتحت قبل العاصمة، وقد كان الأصح قولي :نخوةاسلامية .

يلبس «برنوساً» من الصوف زركشت حواشيه «الرقم» الملونة، ولف سيور حذائه الأحمر إلى نصف ساقه المملتئة وفي أذنه اليمنى حلقة صغيرة من الذهب، فيقول له: إن الذي يراك وأنت تسوق الماشية بقضيبك الرفيع يظنك راعياً ابن راع، ولا يصدق أنك تغادر المدينة إلى المرعى متفرجاً !..

ركض «إيفاو» يسوق الماشية وقد قابله السهل المترامي الأطراف لا يحده إلا الأفق البعيد والبحر من جهة الشمال، وهو يصيح مقلداً بعض الطيور في نغمها ثم يهتف: إني سأتفرج وسأعود لأخبر أمي، سأغني مثلك يا «ماطوس» ولن أتعب، وسأبرهن لأبي على أنني أستطيع مرافقته في زيارة عمتي إلى «سروس»[1]. ثم اقترب ذلك الغلام الأبيض من «ماطوس»، وتعلق بالسيور التي يتمنطق بها فوق قميصه: خبرني لماذا حبست المواشي! وممن كنتم خائفين؟ ومن هم «الدبيون»[2]؟؟ قال هذا، ونظراته البريئة مصوّبة إليه ينتظر الجواب. قهقه الغلام وهو يحييه ويعالج إيقاف الثور الذي عنّ له أن يطلب الفكاك كلياً: الدبيون يا إيفاو ناس كثيرون جاءوا من بعيد! يقتلون كل من يصادفهم ويهدمون البيوت! ويأخذون المواشي!. ولكن إيفاو تعب من الحديث وأحس بالعطش، فأمسك بذيل

(١) سروس مدينة شهيرة في الجبل الغربي لا تزال بعض آثارها موجودة.
(٢) الدبيون صغار الجراد عند فقصه أو لعله الجراد المراكشي.

بقرته الحمراء الهادئة فأوقفها. ثم ركع على الحشائش الندية، وأخذ يرضع، وهي تهمهم راضية كما هي عادتها منذ أن مات عجلها الصغير، فعلّموا إيفاو الرضاعة منها إيناساً لها وإجابة لطبعها الأليف.

* * *

أمسى المساء و «إيفاو»[1] يتحامل على نفسه ممسكاً بسيور الغلام القاسي الذي ما انفك يقول له: دخل الدبيون المدينة وقتلوا بلا شك كل من فيها .. فيصيح الطفل: وكيف أبقى بلا أمي، ولا أرى أبي، ولا أنام عند جدتي؟؟ فيسكته منتهراً إياه: أسكت أيها الشقي فماذا يكون حالنا لو لحق بها الدبيون؟ أظلم السهل المخضرّ، ولمعت النجوم ساهمة ترقب ما تم من انتصار قوم وانخذال غيرهم، فوقع الطفل على وجهه من فرط التعب والخوف وهو لا يعي. هناك انحنى الغلام فنزع «البرنوس» عنه، وتركه حاسر الرأس، وقد تدلت «شوشته» بأهداب ملونة من الصوف، لا يستر جسمه الرقيق إلا صدار من الجلد الأحمر المزخرف، ثم قفل راجعاً إلى «زواغة»[2] ورأسه مملوء خبثاً. رغم صغره ونشأته في ظل تلك

(١) اسم يسيفاو المعروف الآن في بعض الجهات.
(٢) زواغة مدينة على الساحل الغربي من طرابلس كانت آهلة بالسكان أو هي صبراطة الأثرية الآن لأنها قريبة منها.

الأسرة الكريمة جداً . ولما التقى ببضعة فرسان يترنمون بشيء عميق، لم يألف سماعه، فأوقفوه يمطرونه بأسئلتهم الرزينة، أخذ يلفق الأجوبة الماكرة متظاهراً بعدم اطلاعه على شيء مما حدث.

نظر الفرسان إلى بعضهم متضاحكين، فتكلموا بلغتهم الفصحى قائلين : إنه لا شك من زواغة .. تظاهروا بتركه ثم تعقبوه ! إن مظهره ينمّ عن طوايا شريرة، مع أن ما رأيناه في قومه من مخايل الشجاعة والذود عن معاقلهم تجعلهم يشبهون العرب كثيراً . فقال أحدهم : وهذه اللهجة الصعبة ؟؟ فعلق أحدهم قائلاً : قد يكون ذلك لانقطاعهم عن مواطن العرب الأصلية، فهل ننسى اختلاف اللهجة بين نجد والحجاز، وسوريا والعراق ؟؟ إنما يحيرني منهم شدة حذرهم من الأجنبي . ألا تذكر جماعة الفتيات اللاتي أرجعناهن إلى المدينة في هذا المساء ! قال آخر : أذكر واحدة في صدق تعبيرها وإن كنت أجهل الكثير من ألفاظهم ! فقال الأول — وكان ممن تفهموا جوانب اللغة « البربرية » وهو كهل حجازي — إنهن تكدرن من قولنا لهن المتضمن للأمر : أمامنا إلى المدينة ! فقالت : إن الفتاة الطيبة لا تساق كالماشية ! إنما تحمى وتسلم كالوديعة لأهلها ! فلما وقفت أمام دارها ابتسمت شاكرة وهي تقول : قد كذب من يسمي جيوشكم بالدبيون فأنتم كما أرى أنكم جديرون بانتصاراتكم الكبيرة وما تقولونه عن عبادتكم لشيء واحد ينجيكم، ويرزقكم ما تشتهون. وبغتة تفقدوا الغلام فلم يجدوه؛

فتفرقوا يطلبونه فلم يعثروا له على أثر . فرجعوا إلى المدينة فوجدوها هادئة، كأنها احتلت من زمن بعيد ! فمروا يجنود الحراسة الليلية فسرهم النظام الذي باتت فيه تلك المدينة العظيمة، فقالوا لبعضهم : أنرجع للمعسكر خارج المدينة ونترك أمر الغلام ؟ ولكن الحجازي عاتبهم قائلاً : وأين النخوة العربية ؟

قالوا : أي نخوة ؟ وماذا يهمك ؟ ومثله كثير ؟؟

قال : إن نفسي تحدثني بأنه شبه مجرم .. فليتني أعرف قصة البرنوس المرقوم الذي يحمله، والذي لم نسأله عنه ولا فتشناه ! .

* * *

دخلوا المعسكر فطلبوا مقابلة القائد . فوجدوا عنده البشير فإذا بجندي كبير يقف ويقول : رجل من الأهالي جاء يسأل عن طفله الضائع ! ! فهب الحجازي مستأذناً. فوجده بين الحراس يناجي ويتمتم في أسى : بنيّ أين أنت من هذا الليل المظلم ؟ هل أنت حي أم داستك الخيل وسفت عليك السوافي ؟ .

اجتمع الرفاق حوله يتفهمون اسمه وسكناه وعمله، ووعده الحجازي خيراً، فركبوا خيلهم المطهمة فابتعدوا . ولم يتوقفوا إلا عند الظهيرة، إذ عثروا بالطفل المسكين على حاله مغمى عليه . فنزلوا محاولين إيقاظه، فما تراجع إلى نفسه حتى أخذوه، وحمله الحجازي على فرسه، فوصلوا به إلى المعسكر مسرورين.

وما إن رآهم الأب المسكين حتى خرّ ساجداً ، ولما رفع رأسه للسماء قال في ثبات : يا رب العرب ذوي النخوة ! فقيل له : بل قل يا رب الناس ، وادخل إن شئت في دينه الحنيف .. فأجابهم : آمنت ، آمنت ! ولن أنسى لكم هذه النخوة الكريمة .

* * *

مضت السنون وشب إيفاو الزواغي مسلماً صحيحاً لم يخطر له كأبيه الارتداد ، بل كان يحمي قوميته ، ويرشد قومه ، في وقت واحد ، فلازم الجيوش الإسلامية إلى أن كان من جملة القادة المعروفين ، فالتحق بالقائد العظيم عمرو بن العاص يشفع لبني جلدته ، ويهيب بالمسلمين التكاتف والتفاهم ، وبرأفة الحاكم على المحكوم ، فنال بذلك مقاماً محبوباً كان سبب سعادته العميقة وإخلاصه . فحضر افتتاح أحد المساجد ، وفي إحدى صلوات الجمعة الحافلة وقد وقف الأمير الحازم يخطب في الجموع الغفيرة ويحبب إلى النفوس تعاليم الإسلام المجيدة . رأى «إيفاو» رجلاً مشلول الذراع ينظر إليه ويطيل النظر في كآبة . ولما انتهت الخطبة ذهب إليه يستفسره فإذا به ينحني أمامه مكسوفاً . فأمسك به إيفاو وأحضره للأمير . وهو يقول : كأني عرفت هذا المخلوق ، وقد وجدته في كآبة مريبة . فتأمله الأمير ثم

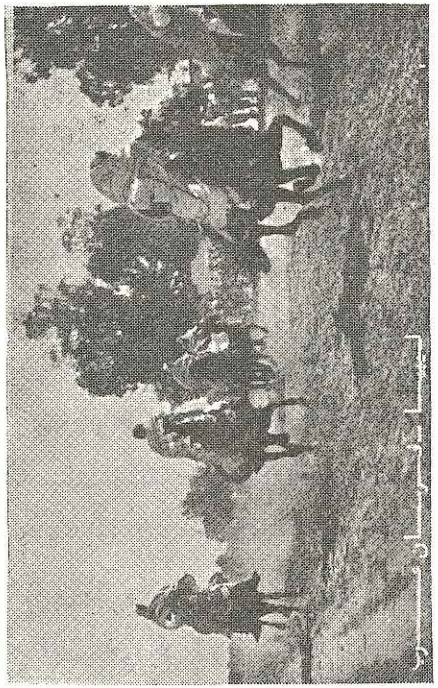

نخوة العرب تتجلى في فروسيتهم

سأله في حزم : أفصح عن حقيقتك ، تكلم وإلا حبسناك !

قال الرجل المشلول في نغمة تبين أنه أجنبي عن القوم ولو دماً : أتؤمنني من هذا!؟ وأشار إلى إيفاو فقال الأمير : نعم ، تكلم . هناك بسط الرجل « جرده » فأخرج من تحته خريطة ما كان ينشر ما بها حتى هتف إيفـــاو الزواغي في دهشة : برنوسي أيها الأمير ! ثم توجه إلى المشلول قائلاً : إذاً أنت قاتل « ماطوس الرومي »؟؟ فنظر إليه الأمير مهدئاً ، بينما أشار على المشلول أن يتكلم . وأخذ ذاك يسرد اعترافاته في لغة عربية مكسرة ، وهو يزداد انكماشاً وندامة : إنه لصادق فـــيما يقول ، فهذا « برنوسه » وأنا الذي تعمدت تركه ليموت بعـد أن ملأت نفسه رعباً .. أنا الأجنبي الذي تربى بينهم ، لا أعرف أهلاً ولا وطناً سواهم . فلما لم أوفق ، تراجعت لصفوف البـدو المشاغبين ، نسلب ونقتل ، ونشعل الفتن ، نتظاهر بالإسلام مرة ، ونرتد أخرى ، إلى أن رمتني الصدف في المواقـــع الأخيرة في أعالي برقة ، برجل وقور من قوادكم نويت اغتياله ، فلما قبض عليّ عرفني فعفى عني على شرط أن أسلم وأن ألحق بهذا ـ إيفاو ـ وأسلمه « برنوسه » ليقبل استغفاري ، وعدتـــه ولكن لم أبرح حتى سألته وماذا تسمون هـذا « التعالي » عن السفاسف في لغتكم ؟؟ ضحك وقال : نخوة عربية !!

نظر الأمير إلى الزواغي سائلاً : ما رأيك ؟ أما أصبحنا إخوة وقد جرت النخوة العربية في عروقك أنت الآخر ؟؟ فعلت تكبيرة عميقة من أروقة المسجد الكبير أثرت في الأمير نفسه ، فحمد الله على ما أنعم به على المسلمين من عظمة ، بينما ضم « إيفاو » تلك الذكرى الثمينة إلى صدره في عبرة هادئـــة ، ولسان حاله يقول : لتكن نخـوة إسلامية ، إنسانية أيهـا الأمير ! لتتوارثها الأمة مدى الدهور .

٥

الربيع في الحمادة

حوالى سنة ١٨٨٠ كان موسم الأمطار مبكراً في جهة «القبلة» جنوب طرابلس الغرب فخرج الكثيرون من تلك الجهات من ذوي العدة اللازمة لتلك الأبعاد ، فحرثوا كثيراً ، وعند رجوعهم قرَّ رأي معظم أهل تلك المراعي الدسمة الشهيرة بجودة درها بين سائر البلاد : ليكن موسم « الربيع في الحمادة » ذات المرابع المهمة ، وان شق الوصول إليها على عامة الناس ، وأصحاب الأغنام القليلة ! فما انتصف شهر ديسمبر ببرده الشديد وثلوجه المؤكدة لرخاء تلك السنة التي ستسر الفقير بعد شقائه وتطمئن قلب المحتاج ، حتى عمَّ التأهب ؛ فبدأت «المراحل»[١] تقصد الحمادة من جميع الجهات . فينزلون منازل عديدة ثم يتابعون السير على هون لئلا تتعب الماشية أو تتأذى الأغنام ، خصوصاً المواليد الجديدة . وكانت هذه المراحل تأتي غالباً من

(١) جمع مرحول ويقصد بذلك جماعة تتفق على قضاء الربيع مع بعضها وكان لاتفاقاتهم إذ ذاك قيمة ونتائج اجتماعية مشرفة للغاية .

البلاد التي ما بين « نالوت » على الحدود الغربية ، ومن حدود غريان وترهونة وما جاورها من المراكز الشرقية والوسطى ، وكلها من الأسر المقتدرة . وفي أوائل فبراير تقاربت الجموع من أصحاب تلك الزروع في الحمادة الحمراء من محلها المقصود من تلك الفيافي حول بركة « الواعسة »[١] العظيمة الشهرة . فأخذوا ينزلون على مسافات مختلفة من تلك البحيرة الرائعة ، المتكونة من السيول المتوالية ، فكأنها مقياس الخصب الصحيح لسنوات الخير في الحمادة الحمراء خاصة . ومما يتناقله أهل طرابلس الغرب بين الأمثال السائرة ، أن بعضهم لقي جماعة من «الكعدان »[٢] يرقصون طرباً وهم في طريقهم إلى الحمادة في أوائل الشتاء، فقال لهم : « وين ماشيين يا كعدان ؟؟ » فأجابوا في نشوة :عند الكلخ (والكلخ من أعشاب الحمادة الدسمة) . وبعد أربعة أشهر سمن فيها الكعدان من أكل الكلخ وحفت أقدامهم من كثرة الحصى المسنون ، رجعوا في طريقهم المحرق لشدة حرارة الشمس ، يظلعون ، ويئنون من ألم انسلاخ أقدامهم السمينة فقال لهم صاحبهم : وين كنتم يا كعدان ؟ فقالوا في ألم وتجربة ، وخطر تشقق السنام السمين من وهج الشمس يهددهم : « كنا عند السلخ والملخ !! » .

أما جوانب « الواعسة » فتتزركش في مثل تلك السنة

(١) هي بحيرة مشهورة تتكون من مياه الامطار في السنوات الممطرة وتفيد المربعين بقربها في الصيف .

(٢) أصلها قعدان جمع قعود ويقصد به البعير الصغير .

فتصبح كأنها بسط أعجمية من كل لون وحجم ، لا يحدّها إلا الأفق الأزرق الحريري . وكثبان الرمال الحمراء القانية ، تتخلل تلك الرقعة الصحية الشاسعة من جنوب ليبيا ، فالطقس فيها يكاد لا يضر ،والحشائش قصيرة غير مكتظة ولكنها نافعة ،عظيمة البركات ، و « المربعون » في أكنافها لا ترى عليهم لفحة الشمس أو نحول التعب لبعد المياه ، بل ان الشباب يهوى ربيع الحمادة لما له من مظهر الصحة التامة ومحافظته على جمال البشرة ونعومتها. وهذا لا شك فيه لأن أصحاب النجوع كلها من أعيان البلاد ووجوه القبائل ، ممن يملكون عشرات المواشي ومئات الأغنام. وقد عنّ لكبار تلك النجوع ـ أصحاب تلك الزروع حول « الواعسة » أن يكون نزولهم قربها في يوم واحد ، كما قرروا لكل نجع محله الخاص بحيث يشكلون دائرة كبيرة على زروعهم التي تحيط بالمورد العظيم ، قبل أن يسبقهم إلى ذلك سابق ، فيصبحون في مشكل يسبب أو يبعث المنازعات التي كانت معروفة بين القبائل حول المياه والمراعي في أوقات الفوضى واختلال الأمن في دواخل القطر البعيدة عن المسامع والأنظار . فنزل هذا الاتفاق من النفوس منزلاً حسناً ،فاستعدت له النجوع من رجال ونساء . ففي ضحى يوم مشرق من أيام « الملي » [1] الخيرة لمباشرة تلك الأعمال الصالحة ، لما فيها من مظاهر الأخوة

(١) الملي كلمة يعبر بها عن ملاءمة الايام بل عن بركتها عند مباشرة الأمور المهمة .

والصفاء من شهر فبراير شهدت الحمادة الحمراء عرضاً ربيعياً خلاباً من حيث الروعة في الجمال الصحراوي البدوي ، المطبوع على الحرية والاعتزاز بالقومية المقدسة قبل كل شيء وبعده .

***

كان الرحيل في ساعة واحدة والكل ـ حسب العادة عند البدو ـ ينتقلون يوم الرحيل من مضرب إلى آخر في أجمل الحلى والحلل ، فلا ترى العين على مد بصرها إلا « الجحاف »[1] المزينة في مختلف الأشكال المزركشة بالألوان الزاهية فوق الجمال العالية ـ كما يقولون ـ تحوطها وتتدلى تحتها « المراقيم » الوطنية و « الحمول » الدقيقة الصنع من أشهر منتوجات البلاد مثل مصراتة وبعض الواحات القبلية ، والخيول الأصيلة بسروجها المطرزة بالحرير أو خيوط الفضة ، عليها من الشباب العزيز والكهول الموقرين ،وحتى بعض الشيوخ المحترمين ، بسلاحهم الوطني التام ، وجرودهم الناصعة البياض ، وبرانيس مختلفة الألوان من الجوخ ، يؤكدون للزمن قيمة الإنسان في تلك الربوع ، وانطباعه على حب النظام والإخاء ، وناهيك بأسراب الصبايا و (العقائل) من الشابات اللائي يفضلن ـ كما هو غالباً ـ الاندماج في أسراب الحرية والنشاط : فيهجرن الجحاف العالية مختارات .

كانت النجوع في ذلك اليوم السعيد تمثل أنواع الأزياء الطرابلسية وأشكالها ، فمن الأسود إلى الأزرق إلى الأبيض ،

(١) الجحاف جمع جحفة ، وهي الهودج الخاص بركوب النساء ولها انواع ومناسبات .

وأحذية [1] الأرجـــل الغدامسية المنقوشة بالحرير الخالص أو المزركش بالفضة تطبـع خطوات الهناء السرمـدي من ذلك الفصل على صدر الحمادة الرحب ، وأناشيدهن تتجاوب في مختلف الأنغام والألحان بمعانيها الرقيقة السامية ، فكلما ركضت كوكبة من الفرسان تعالت الزغاريد وكلما تجاوبت (لحنة) انبعث صوت البنادق في طلقات ترددها الآفاق الضاحكة في تحديد مؤنس عميق ، يستحق الإعجاب . حتى عنّ لابنة أحد الأعيان وقد أعجبها (مرحول) أبيها ، وراقها منظره وقد تقدمه الأب الوقور مرفوع الرأس ، سعيد النظرات ؛ أن ترفع صوتها بمثل هذا البيت :

« هادول مراحيل سيدي مول العبيد الكثيرة .
وإجحاف داروا نواوير والدير [2] مكلف بليرة ! » .

فلم يسع الأب إلا أن يركض شوطاً ويطلق بندقيته تحت أقدامها وهي بين سربها تأييداً ـ حسب العادة ـ فضجت الزغاريد من كل صـــوب لا فرق بين تلـــك الأسراب الملونة التي تلمع صدورها ومعاصمها المخضبة بالوشم الدقيق ، والحلى الثقيلة الجميلة الصنع والتكييف .

***

(١) القصد من الحذاء هو (السباط) بأنواعه الخاص بالنساء .
(٢) الدير الوشاح الذي يمسك السرج العربي الليبي عند صدر الفرس ، غير القلادة التي توضع في الرقبة وتكون من نوع الدير وزخرفته .

بعد صلاة الظهر ، حين بدأت ظلال (السدر) المحيط بشواطىء البحيرة تنعكس على صفحتها الرقراقة ، تكامل وصول الجموع ، فإذا بكل جماعة مجدة في بناء بيوتها وتزويدها بما لزم من الحطب المعدوم في الحمادة انعدام الحجارة الكبيرة ؛ وفي ساعة من الزمن كانت الجِمال قد سرحت إلى المراعي والنيران في كل بيت .

فلما مالت الشمس إلى الغروب سكنت الطبيعـــة إلى ذلك المشهد الفريد: بساط الأرض المستوي في خضرته وحمرته الجذابة ، تحت السماء الصافيـــة الحريرية ، والأفق الذهبي فوق لجين الماء الرقراق في تلك البحيرة وقد غمر سدرها الكبير ولم يظهر إلا بعض الأغصان الداكنة الخضرة من كثرة الرواء ؛ فقال الشيخ سالم ـ وكان من جماعة الكهول الموقرين وهو يتكىء على مرفقه فوق الكثيب الناعم الذي اختاروه لمجلسهم بعيداً عن مجالس الشباب وقد واجه البحيرة القريبة : سبحانك اللهـم ما أبدع هذا المنظر !! حقيقة ان الربيع في الحمادة جنة ! ما أحلى الوئام وأسعد الأخاء ! سبعة نجوع ، كل نجع من قبيلة ، كل قبيلة من بلد .. يعمنا السرور والطمأنينة ، وتشكل هالة من الهناء حول هذا الغدير الهائل ؛ كل هذا من فضلك يا رب ! وفي ظلال رحمتك وفي سبيل طاعتك من الكسب الحلال ، إلهي ، ما أغنى الناس عن التخاصم والشقاق؟ ما أغناهم عن التفرقة والعدوان ، أليس في

وسيع رحمتك وجودك الكريم متسع للجميع ..؟

قالت الجماعة الوقورة : نعم ! ما أبدعه وأعلاه سبحانه وتعالى ! ثم اعتدل أحدهم وهو يقول للشيخ سالم وقد كان ممن تعدد لديه شبه ذلك المنظر : كأني بك قد أُخذت بهذا المساء ؛ فصبراً قليلاً إلى ما بعد العشاء .. ورجوعنا إلى هذا الكثيب للسهرة والنوم ، وسيكون سؤالي الحقيقي تاماً عما تشعر به في هذا المقام ..

رجعت الأغنام إلى «المراح»[1] فتجاوبت أصواتها مع أصوات « الناي » المحبوب لكل راعٍ ثم كثر الهرج في كل نجع وأضيئت النيران المكبرة ، وتمت عملية الحلب إذ لم تتعرض النساء للأغنام قبل الرجوع حسب العادة في أسراب شادية – لتعبها – وعدم تباعد الأغنام عن النجوع في يوم الرحيل ، ثم عاد السكون الهانيء يعم المكان من جديد .. فشمل الجو نسيم بارد لطيف ، كأنه من نسمات الخلود ، يذهب عن النفوس تعبها اللذيذ .. وانتحى الفتيان إلى كثبان الرمل المنتشرة على الشواطىء الخلابة يسمرون على أنغام المزامير المتنوعة التي تهز أطراف الحمادة بفصول شجية ، لا تقطعها إلا مجاراة بعضهم للمزمار ، أو قهقهة سعيدة لا يطلقها شبان البدو إلا في مجالس أترابهم بعيداً عمن

«١» المراح: الساحة التي تكون امام صف البيوت المنصوبة حيث تنام الاغنام ويجلس الرجال .

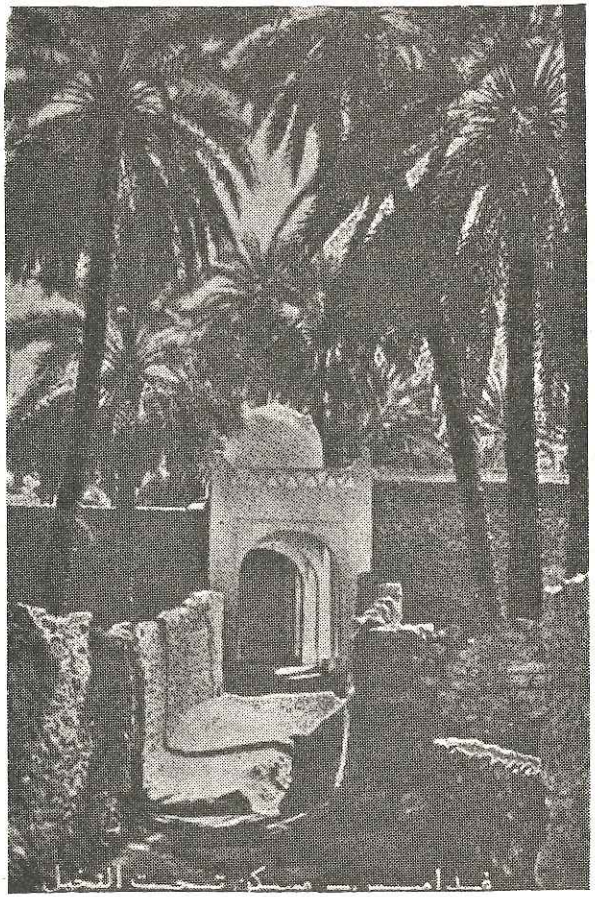

غدامس لؤلؤة الصحراء

يحترمون من قريب أو صديق [1] .. كما اجتمعت الصبايا في كل نجع على حدة في كل مراح يغنين أغاني الربيع والليل الخاصة ملء الحناجر . وكان البدر تاماً ، يعلو عن ذلك السطح محفوفاً بالنجوم فيضفي على تلك الحقائق النشوانة أنوار السعادة .

انعقد مجلس الشيوخ أيضاً على كثيبهم القريب من نجع الشيخ سالم فقال له صديقه وهو يمد له كأس الشاي الأخضر — والشاي لم يعرفه إذ ذاك إلا بعض الأغنياء—وكان قد جلس لتحضيره وهو يغمغم ببعض القصائد المنسوبة لمشاهير الهلاليين : ما رأيك في الحمادة الحمراء يا شيخ ؟ ما هو شعورك في هذه النسائم والنغم ؟ ألا تراها تجلو عن القلوب همومها ؟ ! .

اعتدل الشيخ فرفع رأسه إلى القبة المضيئة في خشوع ثم أرجع طرفه المأخوذ يميناً وشمالاً وهو يقول : صدقت يا أخي فيما قلت !! أما أنا فأشهد أني ما رأيت يوماً ولا ليلة ربيع أبدع مما رأيته هنا !! فقال صديقه وهو يبتسم : هذه هي الحمادة يا صاحبي ! في سنين الخير والهناء والأمن ، قطعة من الجنة ! في هذا اليوم وما يليه من الأيام حتى يشتد الحر ويجف الماء والعشب ويعدم « الترفاس » الكثير ، هنا صيد الغزال ، والقطا ، هنا ملاعب الكرة بين النجوع .. هنا الحياة تتلخص في السرور

«١» فقد كانت المجالس الليبية نظيفة بعيدة عن اللغو والمهاترة والمجون وهي المجالس العائلية التي يجتمع فيها الكبار والنساء .

والمرح والشدو .. كل منا يشدو !! كل منا يمرح !! كل منا نشيط سعيد .. فترى الوجوه كأنها في مدينة الرقاة.. بياض، نعومة ، إشراق .. هنا البركة في الحليب .. حتى قيل : « ود الحبيب للحبيب الثمر والحليب ! » .

— أرجو أن يكون هذا كافياً لإزالة توجسه من مرافقتنا لهذه الأصقاع النائية !

تنفس الشيخ سالم وقد كان قد أتم شرب الشاي رشفة رشفة ورجع يستلقي على ظهره متوسداً طرف « حولية » وهو يقول مبهوراً : لا ندامة ، ولا هواجس قط ! الحمد لله على كل حال . فصمت الجميع . فإذا بأصوات الصبايا تصل إلى اسماعهم فأنصت الجميع في إعجاب يخالطه الإكبار العميق .

فقال السرب الأول :

حميرة مكركد وبرهـا جت راتعـه في الجداري
ولولاد سمعوا خبرهـا وجو ساللين الغداري

السرب الثاني :

البل عوج العراقيب إليا شبعت ما اطواطي
تطوي الوطي طي في طي طي الحصير البساط

السرب الثالث :

البل حلفت بالإيمان ما توردوا بو عجيله
ما توردوا كان صرمان مول المياه الكثيره

السرب الرابع :

تمنيت [1] خوتي ثلاثين واولاد عمي بزايد
لا ياكلوا لقمة الدين ولا يلبسوا جرد بايد

السرب الخامس :

يا شجرة الهذبان يا تاويه بالخضـــورة
تنشد على حي لحباب في اي النواجع اتزوره

السرب السادس :

يا شجرتي دون غريان يا وافيه يا طويله
قيلش تحتك العصران [2] بحصان عالي صهيله

السرب السابع :

كنا أربعين صبيـه وارقادنا على وسادة

---

(١) امنية سامية ما أجدر جيل طلب الوحدة الكبرى ان يفهمها ، حتى تحرر الأوطان العربية من كل عوز وسيطرة إن شاء الله .

(٢) العصران الشاب الشجاع المقدام الكبير الهمة.

وجانا الزمان المفرق فرقنا على غير راده

***

لمع شرار البارود من فوهة كل بندقية « وغدارة » وضخّم السكون الشامل تلك الأصوات ، فتراجعت كأنها آتيـــة من جوف المزارع السندسية أو من الغدير العظيم ! فتبعته عاصفة من الزغاريد الحارة من كبيرات السن خاصة ، فاهتزت النفوس اهتزازات عميقة أمام تلك المؤثرات الشيقة فقالت إحداهن — وكانت ممن قدر لهن النعيم والرخاء ، وتكررت تلك الفرص وهي تتأمل بنتاً لها توسطت السرب تزهو على ضوء لهب النـــار التي جلسن حولها في مرح وكانت عروساً وهبتها الطبيعة جاذبيـــة نادرة فوق الجمال ، فكأنها تحدد المقياس الصادق بينها وبين القمر الرافل بين النجوم في تواضع :

— رحم الله الهلالية القائلة : «يا ريت الربيع ديما [1] ، يا ريت القمر ديما ويا ريتني جارة أُمي ديما » فأجابتها العروس هاتفة : « الآن حقت الزغرودة عليّ يا أُماه » !! فشاركها سربها بصوت يخاله السامع من أفراح الملائكة ! .

***

لم يستيقظ الشيخ سالم إلا على تكبيرة المؤذن لصلاة الفجر !

---

(١) كلمة ديما تعني دائماً ، وقد تمنت أن يكون الربيع بما فيه من نشوة والقمر وجماله المنور دائماً وهي جارة لأمها عند الزواج .

وكان ذلك الصديق المتمازح قريباً من مكانه فهبّ وكأنه بُعث جديداً ، في قوة الشباب ونشاطه فقال له : إلى البحيرة يا شيخ ! واصطبح الجميع على صلاة الجماعة في تلك الضفاف السندسية ثم جلسوا هنيهة يسبحون ويدعون للجميع وللأمة الإسلامية عامة بالسلام والوئام والسعادة في الدارين . ثم نهض كل إلى عمله المحدود ليتركوا النزهة واللقاء السعيد لجموع النساء يردن الغدير كالظباء الآمنة ، يغسلن ، ويقضين سويعات لا تنسى مدى العمر ، وأعمق من ذكراها اللذيذة نعمة التعارف والاطلاع والسمو بالروح الشعرية إلى أسمى الآفاق وأجمل الأماني في تلك الأيام الشادية على العموم وفي كل لحظة من تلك اللحظات . كما قالت أنبلهن كشاهدة وهي ترجع لبلدها بعد أن امتلأت نفسها بهجة وسروراً من تلك الضفاف والفيافي الحبيبة لأمثالها من السعيدات .

٦

وشاح الشجاعة

استفاقت « غالية » من نومها الهنيء مبكرة ، فنظرت إلى باب الحجرة الفسيحة فرأت أضواء الفجر تلوح من شقوقه ، فهمست قريباً من زوجة أخيها بصوت ضاحك سعيد : صباح الخير ! لا أدري لِمَ طار النوم من عيني هذه الليلة ؛ فرغماً عن السهرة الطويلة استيقظت قبل أن يطلع النهار ! فردت عليها في سرور ، ثم هبت من مكانها فغطت طفلها وأخذت تسوي « رداءها » المخطط بالألوان الزاهية : إنك مسرورة ومتطلعة لليوم الجميل ! إن أخاك سوف يحضر اليوم من الجفارة ليكون على رأس الجماعة الكبيرة .. وقد سمعت أباك يقول : إن أكثر شباب القرى المجاورة لبّوا دعوتنا لسابق تلبيتنا لكل داع ، وسوف تكون « الرغاتة » أكبر « رغاتة » في هذا الموسم : هيا بنا لنرى أمك وخالتك ، فلا بد أنهما بكرتا في العمل .

فتحت الفتاة الباب الثقيل ، فهب على وجهها نسيم الصباح الندي

فإذا « بعصفور » من العصافير المعششة في المنازل يمر أمامها ، خارجاً من الفناء ، فضحكت وهي تقول متفائلة : أنه ليوم مبارك عليّ ؛ إنه عصفور يبشر ! سأجرب ماذا يحدث لي بالذات ؟!

قالت الشابة : لم أرَ عصفوراً ما معششاً في سقوفنا ، فلا بد أنه « بشير » خير .. ثم ضحكت قائلة .. يقال أن العصافير لا تكذب !. ضحكت غالية أيضاً وكانت قد انتهت هي الأخرى من لف « عباءتها » التي كانت من الصوف الرمادي الناعم ، لباس الفتيات المختار ، وأصلحت غطاء رأسها الأبيض فوق ضفائرها الطويلة المسترسلة على ظهرها في رشاقة ، وقالت بصوتها الهادىء الرقيق : أواه يا أختي ! لا تزال الدنيا في سكون ، حتى أمي لم تبدأ العمل ! إن موسم الحصاد رغم شمسه المحرقة هو الآخر موسم البهجة !! إني في الحقيقة تمتعت بمواسم العدس مراراً ، ومن مباهج الربيع طويلاً ، لكنني لم أحشر في زمرة العاملات في موسم « الحصاد » .. فقاطعتها زوجة الأخ وهي تتأملها في ارتياح يشبه الفخر : ستتفرجين اليوم !! وسيرى أبوك أي شجاعة هي « غالية » !

لم يعجب الفتاة ذلك التهكم البريء ، فأجابت في شيء من التذمر : وهل في أداء الواجب من شجاعة ممتازة يا أختاه ! إني سأرافق الخادمة وأشاركها حمل «القصاع» إلى جماعة «الحصادة».

فاقتربت منها وهي تربت على كتفها وتقول : لا بأس عليك يا بنيتي ، كلمة جاءت على لساني .. ولكن شدة إعجابي بك وما طبعت عليه من دماثة الأخلاق يجعلني لا استنكر عليك شيئاً من الامتياز لو حصل لك في يوم من الأيام .

* * *

كان « المؤذن » على طاقة سطح المسجد الكبير يؤذن لصلاة الظهر عندما خرجت « غالية » في كامل هيئتها الخاصة بالفتيات وعلى رأسها « قصعة » كبيرة مغطاة « بطبق » فزاني منقوش نقوشاً جميلة ، وفوقه « منديل » كبير من الصوف الأحمر المرقوم — من النسيج المحلي — وفي يسراها « جرة » خضراء مملوءة بالحساء ، فقالت الخادمة السوداء وهي تتقدمها : في أمان الله يا أهل الدار . فانحنت الشابة تودعها ثم هتفت : لو كان الحكم لي لجعلت لعباءتك « شارة » تميزك بين أترابك يا غالية ! فقالت الخادمة : ربما يتحقق فألك يا سيدتي لسبب ما !

وكانت أم غالية تجلس في الفناء الصغير لتستريح ، قريرة العين ، وسمعت ذلك الثناء على وحيدتها فابتسمت وهي تهمس : لا تطري الفتاة كثيراً .. ولا تظهري لها إعجابك ، فالشباب مزيج من الكبرياء والغرور ! إني لم أتمنّ من الله آية من آيات الجمال ، ولكن تمنيت أن تكون بنتاً متحلية بأحسن الأوصاف المحبوبة في

معشرنا ، فمنذ صغرها ربيتها علىأن تطلب الكمال لا أن تراه في نفسها عبارة عن ملامح جميلة .

هنا دنت منها إحدى قريباتها فسألتهـــا في صفاء الأحبة : أحقيقة ما تقولين ؟؟ فقالت الأم وهي تصلح سواراً فضياً في معصمها الأيسر : نعم ! قالت القريبة : أمتجاهـلة أنت أم مستهينة بنعم الله ؟؟ قالت لها : حاشا لله ! بـل إني لشاكرة فضله العميم ! فضحكت القريبة وهي تزداد انشراحاً شأن ذوي القلوب السليمة : أراك تسعدين بسماع وصفها ! فقاطعتهـا الأم جادة : كفى ، كفى ، أرجوك أن لا تفعلي لأنك لن تستطيعي أن تذكري لي أحب شيء فيها إلى قلبي وأقربه إلى طبعي ! ثم أردفت : تعجبني فيها الشجاعة ! فهي أشجع مني ! إني نشأت يتيمة واليتيم غالباً ضعيف ، مهما كان..فهي شجاعة من صغرها. ويغمرها الهدوء دائماً ، هذا لا غير ...

* * *

أشرفت الفتاة وخادمتها على حقولالزرع المقصودة من الغابة الشاسعة ، فقالت غالية : إني أتحاشى المرور بينهم ، فتقدمي أنت حتى يتركوا مناجلهم ويجلسوا لمحل الاستراحة وألفّ أنا من الطريق الثانية حتى تتناولي مني القصعة وأدخل الفدان لأحصد ما ندقه ونأخذه للبيت . قالت هذا ونزلت من طريق اختارتها حياء فمرت بـ « جرف » عميق خلقته السيول فوقفت

فجأة ، ولكنها لم تتراجع بل وضعت القصعة والجرة جانباً وفي لمح البصر تناولت أحجاراً حادة وأخذت ترميها متتابعة في خفة وثبات حتى أصابت الهدف الذي كان ثعباناً هائلاً قطع الطريق في وجوه المارة منذ زمن ولم تسنح الفرصة للجماعة أن تفكر في أمره ، وتخلص سكان القرى المجاورة من خطره ! فلما تيقنت من إصابته ، اقتربت منه فرمته بحجارة كبيرة كسرت جمجمته ، ثم رجعت بسرعة لحمل قصعتها لتتم الطريق في ثبات ، وكأنها لم تفعل شيئاً . في حين كان شيخ وقور يتتبع حركاتها من بعيد إذ لمح انحرافاً لناحية الخطر فتيقن من جهلها للحقيقة ودفعه حب الخير للوقوف قريباً من المكان ، شاهداً على الإقدام الرائع دون أن تنتبه إليه ، ثم تبعها إلى ذلك المحل يستوثق من نهاية ذلك (الخطر) الذي حير الجميع مدة طويلة ـ دون أن تسمع به (غالية) قط ـ فلم يسعه إلا التوجه إلى حيث جماعة والد « غالية » وقلبه يفيض ابتهاجاً ـ فوجدهم في شكل دائرتين . فنهض لاستقباله شاب وسيم تعلوه ثياب ناصعة ، فرفع الشيخ صوته قائلاً : « هنيئاً » وأزال الشاب الغطاء عن الطعام فإذا به فاخر للغاية ، كثر عليه اللحم (القديد) وزين بحبات البيض الملون في هيئة متقنة أنستهم جمال (الطباق) المزركشة ، فقال الشاب : هيا بسم الله تفضلوا !ولكن الشيخ الرزين ووجهه يطفح بشراً لم يجب بل تقدم لوالد الفتاة وهتف مرة أخرى :

« هنيئاً » فظنه الوالد يقصد ما وجده بين يديه . ولكن الشيخ أمسك بيده مسروراً وهو يقول : هنيئاً لك بما أنجبت ! هنيئاً لك بابنتك ! لقد أقدمت على ما لم يقدم عليه أحد من الرجال .. لقد أراحتنا من « الصل » ـ الثعبان ـ لقد استحقت وساماً على شيء عظيم ! على (شجاعتها) !! .

* * *

رنت دقات الطبل الداعي للاجتماع ـ حسب العادة ـ في ربوة تتوسط قرى المركز ، فلم يتخلف أحد ، ووقف ذلك الشيخ بين الحاضرين يصف إقدام (غالية) وثباتها وسرعة طريقة قضائها على ذلك الخطر ذي القرنين ، والشعر اللامع ،

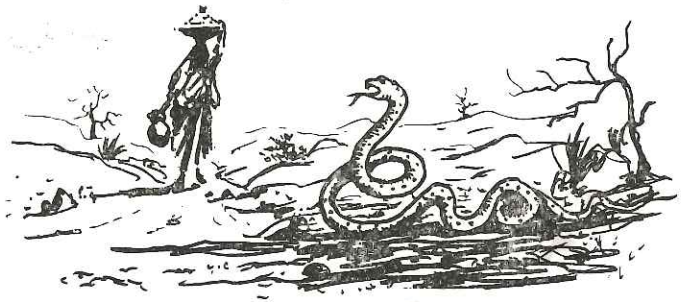

والذي زاد طوله على بضعة أقدام ، وأخيراً قال :

ـ أقترح أن تكافئوا هذه الفتاة بما تستحقه ! فوقف كثيرون يعرضون ما حسبوه لائقاً ، وأخيراً نهض زعيم الجمع فقال بصوت

جهوري خلاب : أيها الإخوة ! إن أحسن مكافأة نقدمها لفتاتنا هي المكافأة التي تميزها بين أترابها ! إجعلوا لها نوعاً من (الرقم) في (جردها) ـ عباءتها ـ يكون خاصاً بها وببناتهـــا مدى الحيـــاة . فكبر الجمع وهتفوا استحساناً وتأييـــداً . وبالفعل أطاعت أم « غالية » الأمر فنسجت لها عباءة جعلت لها بهاشية « وشاح » من الرقم وأوصتها أن تجعله شعاراً لبناتها، ورمزاً لتلك الذكرى .

فبقي « الشعار » حتى اليوم لبنات قبيلة « أولاد زكري » ـ قبيلة من قبائل [1] فساطو ـ مع المحافظة على نظام منحه إذ لا ينسج في بيت إلا كانت لهم بنت ، فالزوجة التي ليست من تلك العشيرة لا تقدم على نسجه قطعاً حتى ترزق طفلة،فعندئذ تنسجه بسم الله خصوصاً لابنتها وتيمناً بشعار جدتها واستحقاقاً ، وهي قريرة العين .

(١) فساطو اسم جملة القرى المحيطة بجادو – المركز واسم جادو قديم كان لمدينة شهيرة في الجبل يبتعد عن جادو الحالية قليلاً .

٧

الرجوع إلى الله

انعقد الاجتماع في بقعة خالية من الجفارة ، وأربى عـدد الحاضرين عن ثلاثين فارساً ، فكان للرئيس فرس عرفت بشدة احتمال المشاق والعدو السريع .

جلسوا حلقة واحدة ، آمنين من كل رقيب ، وأخـــذوا يتباحثون في غاراتهم السابقة شرقاً وغرباً ، فقال واحد منهم معتداً : إني حضرت معكم الغارات الناجحة كلهـــا ، وكلما تخلفت عنكم فشلتم . فضحك الجميع في إشفاق ، ثم أجاب أقدمهم في العقد وأكبرهم رزانة : ليس الفشل أو النجاح في الغارة موقوف على وجود هذا أو ذاك إنما نحتاج إلى التدبير وإحكام الخطة لا غير . قال آخر : إن عصابتنا بل قبيلتنا كلها أصبحت مضرب المثل في غاراتها الموفقة ، حتى قيل : إننا في الواقع نغير على من يستحق الإغارة عليه !!

تنحنح آخر ، فكان يدّعي الكثير من المعرفة للفصول

المناسبة والجهات الأولى والطرق الآمنة من الرقباء ، فيصلون إلى أسواق غدامس باب الصحراء ، ومزدة ، وهون ، وسرت ، وبرقة كلها ويرجعون من هناك بمثل ما أخذوه وأكثر .. يدخلون المدن الساحلية الرئيسية مثل : مصراتة ، والخمس شرقاً ، وزوارة غرباً .

ـ إني أجدت مهنتي فأصبحت ممن يعتمد عليهم أمثال رئيسنا الشيخ عبد الجليل أليس كذلك ؟؟

كان الرئيس يفكر في غارتهم المقبلة ويقدّر سهمه الأكبر منها ! إن غيره من الرؤساء أثروا ، وأمسوا من أصحاب الإبل التي لا تحصى ، وأهلهم ينعمون بكل خير ، إلا هو لا يزال فقيراً بالنسبة لهم لتسامحه في القسمة وإقلاله من الإغارة بنفسه . أما الآن فسوف يذهب في كل غاره ، ويتقدم في كل مرة ، حتى لا يمنون عليه بشيء ، فانتبه لذلك السؤال فأجاب :

ـ لم تخطىء كثيراً في وصف نفسك يا (ضو) أما الذي يهمنا الآن فهو أن نعطي للعصابة نوعاً من الرهبة حتى تنكمش شهرة العصابات الأخرى ، وتدوم السطوة لنا وحدنا .. إن الجدب المستمر في بعض الجهات دون الأخرى يسهل علينا عملنا إذا حافظنا على لباقتنا ! ولم يسع الرفاق إلا التساؤل : كيف ننشر هذه الرهبة ؟! . أجابهم وهو يصلح «سيور » حذائه البدوي الخاص

بالفرسان والمسمى بـ « التماك » ثم ثنى أرداف قميصه الواسعة :

ـ ننشرها بالكتمان التام حتى ننزل كالصاعقة حيث شئنا ثم نختفي كالجنون !!

ضحك الرفاق للتشبيهات الجديدة في منطق الرئيس ، فقال أحدهم في خبث : اليوم أصبحت « محرماً » كما يقول أهل الضعف في هذه الدنيا !! ولكن الرئيس لم يجبه ، لأنه كان يرى وجوب الرجوع إلى بيوتهم ليطمئنوا على عيالهم .. فوقف يصلح منطقته ويتفقد كيس باروده فقال أحدهم :

ـ نسينا الغذاء ! فقال آخر : لم يبق لنا من الماء شيء يذكر .. ولكن الرئيس أمرهم بإحضار « السويقة » بسرعة ، فجلسوا القرفصاء يلتهمون اللقيمات من قصعة كبيرة ، ثم شربوا بقية الماء من « السماط » الكبير ، واعتلوا صهوات جيادهم ووقفوا حلقة يقررون موعد اللقاء ، ومكانه . فقال الرئيس :

ـ بعد غد في الصباح الباكر في سفح الجبل ، من الجهة الشرقية ، كلكم في تمام الاستعداد من بارود وزاد يكفي شهراً على الأقل ، إذ مسيرنا سيكون إلى براري « سرت » أو يستغرق أكثر ، حيث سنشن الغارة على « صراعيف » الإبل الهائلة في تلك الأبعاد ونقصد بها مستنقعات « تاورغاء » حيث نقسمها أقساماً نتوجه بها إلى جهات مختلفة درءاً للشبهة ، ولا بد من مراعاة

الدقة والسرعة ! فوافقوا بالإجماع . وقال أحدهم :

ـ في سفح الجبل حيث العيون الجارية ! فقال آخر: لا حاجة للتفرقة ، إذ يظهر لي خلو « الجفارة » من المارة في هذه الأيام حتى من الرعاة .. فقال غيره : الإنسان مثل « الهوش » يتبع الجود ! . ثم ركضوا بخيلهم وهم ملثمون ، لا يعرف لهم الرائي وجهاً ، ولا يفهم لهم هوية قاصدين محلاتهم وأهلهم .

* * *

استغرب أهل الرئيس اهتمامه باللوازم العائلية خلاف عادته ، فقالت له زوجته متوجسة : إني أراك تتهيأ لغارة بعيدة !. بالله عليك متى ترجـــع إلى الله ، وتسلك في عيشك مسالك الرزق الحلال ؟ إن قبائل كثيرة كانت في أولها «محارم» لا تستنكف من الإغارة وأخذ المواشي والأغنام .. ولكنها رجعت إلى الله ، بل أصبح البعض منها مثـــل قبيلة « الصيعان » المباركة تعتز بدعوات جدهم « بوصاع » ولذلك نراها مرهوبة عنـد الناس ، وأمانتهم وعفتهم مضرب الأمثال ! .

هز رأسه المزدحم بالأفكار والخرائط وهـــو يصلح ويمسح بندقيته من نوع«بوصوان » وقال : دعي عنك هـذه الخرافات ! إننا لا نغير على بيوت أو نعكر صفو الأسر أو نزعج الأطفال والشيوخ . قالت ناصحة مشفقة إذ كانت تحترم فيـــه نوعاً من

الشهامة أخفتها تيارات البيئة المختارة لجدود القبيلة : ولكنكم يا ابن العـــم تفقرون الآباء فتسببون التشتت لتلك الأسر المسكينة فلا ذنب لهـــا عند مثلك إلا ما تملكه من ماشية أو أغنام و ..

قاطعها ضاحكاً : متى تفقهت يرحم والديك ؟! سأسوق الإبل الهائلة وأصبح غنياً ! سأستجيب لمطالبك بدون تذمر !. تشجعت وقالت : إذا كان السبب الرئيسي هو الاستجابة لمطالبي فإني متنازلة منـذ الآن حتى عن « الحلق » التي في أذني . ورغم أنه كان في شاغل رد عليها قائلاً : ليس هذا من شأنك يا ابنة العم فحذار من مضايقتي !

* * *

قبل شروق الشمس وافى الرئيس جماعته في المكان المقرر . وبعد أن تفقدهم وفتش سلاحهم ولوازمهم في حزم نادر ودراية تقدمهم متفائلاً راكضـــاً إلى جوانب السفح حيث ينحدر إلى بعض المسالك المؤدية شرقاً من أسفل وادي«غدو» الشهير وآثاره المسمية « بالقصور » ، فاقتفوا أثره كالشياطين المتمردة ، ولكن سرعان ما توقف وهو يكاد يهوى مع سرجـه . فقال لهم في بساطة : تقدموا ! أرى الحزام انقطع لقدمه .. وعندي حزام جديد سأغيّره حالاً وألحق بكم . احذروا من الطريق العامة وموارد الرعاة ووجهتكم الشرق ! فاختفت الكوكبة «المحرمة»

وراء الأكمة الصغيرة في بطن الوادي ، في طرفة عين .

جلس عبد الجليل على رابية صغيرة وحوله شجيرات قليلة مما يقاوم الجفاف ، وأخذ يعالج حلقة الحزام المنقوش من صنع زوجته ؛ وهو ممسك بعنان الفرس الطروب للمسير في تلك السويعات المبكرة ، فلاحت منه التفاتة فرأى نملة كبيرة من النوع المسمى «بوكطيفة» تسعى جادة إلى شجيرة صغيرة لقطف ورقة منها ، ثم تنزل إلى الأخرى ، فتعيد الكرة بين الشجيرتين وهي تأكل بشهية إلى أن عنّ لها أن تملأ فمها فتدخل ثقباً أمامه وتغيب فيه !

صمد هنيهة كأنه لم يحضر إلى تلك البقعة إلا لمراقبة تلك النملة فأخذ ينتظر خروجها وعيناه تتأملان النقوش الجيدة فكأنه لم يرها من قبل ، أو كأنه استطاع أن يقرأ فيها حديث زوجته الأخير ولكن دون أن يشعر بشيء من التهكم. وتوقف عن العمل ساهياً وبعد برهة رجع إلى نفسه فشعر بتجدد في أعماقه ، تجدد يجلو صفحة عقله وينير أفكاره الجريئة الثائرة على قوانين الأمن والاجتماع ، وأحس كأن هذه النملة جعلت عبرة له لتكون سبباً في تعليمه القناعة مع الكد والاجتهاد ؛ القناعة التي همست بها زوجته في خوف واحتراس من تذمره .. فتنفس من أعماق قلبه ، ثم نظر إلى حيث سارت خيل رفاقه فتمثلهم ينتظرونه مستبشرين ، ولكن هيهات ! إن ما أنار قلبه القاسي فجأة

وجرّه للتفكير محتاراً لم يترك له مجالاً للنظر فيما بينه وبين أولئك الفرسان .. بل أزال كل أثر لما كان يشعر به نحوهم طيلة السنين التي تراس جمعهم . فتنفس كأنه تخلص من ضيق ورفع بصره كأنه يستفسر الأفق البعيد عن أصحابه وكانت الشمس تمدّ أشعتها الجميلة على الكون الواسع ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، فناجى نفسه قائلاً: إنني الآن أناهز الخمسين فمتى يا ترى أهتدي إلى ما يتحدث به الفقهاء ، ويبشر به العلماء ؟؟ وهو نفس ما تحبذه نفسي ، فكأنها خلقت له من طبيعتها ؟؟

أخذ يصلح السرج وهو يقول في ثقة حازمة : سأرجع إلى الله ! .

وبعد الانتهاء ركب فرسه مولياً وجهة أهله وهو ينشد بصوت يملأه الخشوع :

« يا نفس كوني عفيفة ولا تأكليش الجياف
رب خلق بوكطيفة [١] من العرف [٢] لأم الحلاف »

* * *

طال انتظار الرفاق لرئيسهم ، فذهبت بهم الأفكار شتى المذاهب ، وأخيراً اتفقوا على الرجوع ليتحققوا « السوء » الذي حرمه من اللحاق بهم ، فنكسوا على أعقابهم صامتين على غير عادتهم فوجدوه أمام داره ساهماً . فرحب بهم . ثم أخذهم

(١) بوكطيفة: النمل الكبير الأسود .
(٢) والعرف شجيرة القرطاب وأم الحلاف الحلفاء .

وراء الأكمة الصغيرة في بطن الوادي ، في طرفة عين .

جلس عبد الجليل على رابية صغيرة وحوله شجيرات قليلة مما يقاوم الجفاف ، وأخذ يعالج حلقة الحزام المنقوش من صنع زوجته ؛ وهو ممسك بعنان الفرس الطروب للمسير في تلك السويعات المبكرة ، فلاحت منه التفاتة فرأى نملة كبيرة من النوع المسمى «بوكطيفة» تسعى جادة إلى شجيرة صغيرة لقطف ورقة منها ، ثم تنزل إلى الأخرى ، فتعيد الكرة بين الشجيرتين وهي تأكل بشهية إلى أن عنّ لها أن تملأ فمها فتدخل ثقباً أمامه وتغيب فيه !

صمد هنيهة كأنه لم يحضر إلى تلك البقعة إلا لمراقبة تلك النملة فأخذ ينتظر خروجها وعيناه تتأملان النقوش الجيدة فكأنه لم يرها من قبل ، أو كأنه استطاع أن يقرأ فيها حديث زوجته الأخير ولكن دون أن يشعر بشيء من التهكم. وتوقف عن العمل ساهياً وبعد برهة رجع إلى نفسه فشعر بتجدد في أعماقه ، تجدد يجلو صفحة عقله وينير أفكاره الجريئة الثائرة على قوانين الأمن والاجتماع ، وأحس كأن هذه النملة جعلت عبرة له لتكون سبباً في تعليمه القناعة مع الكد والاجتهاد ؛ القناعة التي همست بها زوجته في خوف واحتراس من تذمره .. فتنفس من أعماق قلبه ، ثم نظر إلى حيث سارت خيل رفاقه فتمثلهم ينتظرونه مستبشرين ، ولكن هيهات ! إن ما أنار قلبه القاسي فجأة

وجرّه للتفكير محتاراً لم يترك له مجالاً للنظر فيما بينه وبين أولئك الفرسان .. بل أزال كل أثر لما كان يشعر به نحوهم طيلة السنين التي تراكم جمعهم . فتنفس كأنه تخلص من ضيق ورفع بصره كأنه يستفسر الأفق البعيد عن أصحابه وكانت الشمس تمدّ أشعتها الجميلة على الكون الواسع ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، فناجى نفسه قائلاً: إنني الآن أناهز الخمسين فمتى يا ترى أهتدي إلى ما يتحدث به الفقهاء ، ويبشر به العلماء ؟؟ وهو نفس ما تحبذه نفسي ، فكأنها خلقت له من طبيعتها ؟؟

أخذ يصلح السرج وهو يقول في ثقة حازمة : سأرجع إلى الله ! .

وبعد الانتهاء ركب فرسه مولياً وجهة أهله وهو ينشد بصوت يملأه الخشوع :

« يا نفس كوني عفيفة ولا تأكليش الجياف
رب خلق بوكطيفة [1] من العرف [2] لأم الحلاف »

* * *

طال انتظار الرفاق لرئيسهم ، فذهبت بهم الأفكار شتى المذاهب ، وأخيراً اتفقوا على الرجوع ليتحققوا « السوء » الذي حرمه من اللحاق بهم ، فنكسوا على أعقابهم صامتين على غير عادتهم فوجدوه أمام داره ساهماً . فرحب بهم . ثم أخذهم

(١) بوكطيفة: النمل الكبير الأسود .
(٢) والعرف شجيرة القرطاب وأم الحلاف الحلفاء .

بعيداً فأجلسهم وبدأ يسرد الواقع إلى أن قال : أيها الرفاق ! أيها الإخوان !! إنني رجعت إلى الله !! فارجعوا مثلي هداكم الله إلى الطاعة وحب الأمن والسعادة.. ارجعوا إلى ما أمرنا الله من الخير والصلاح يعطكم الفوز في الدارين ، إني رجعت إلى الله فلن أطعم حراماً منذ اليوم إن شاء الله !! ارجعوا يا إخوان والأرزاق في الحقيقة عند من خلقكم من العدم .. لنؤسس قرية في ذلك الموضع الجميل ، الكثير العيون ، ونجمع كلمتنا على حب الخير ، واطلبوا رضا الله .

ران الصمت على الجميع وأخذوا يتبادلون النظرات في حيرة واستغراب : أهو مريض !! وتملكت عليه بعض « الطوائف » ! أهو جاد !! أم هي حيلة من حيل البدو التي يمليها الذكاء ، وتوقد القريحة المحرومة من العلم والتهذيب ! أهم في يقظة أم منام ! الشيخ عبد الجليل « المحرم » الكبير يدعوهم للتوبة والرجوع إلى الله ! ولكن هيهات إنها لحقيقة غريبة لم تكن في الحسبان ، حقيقة رهيبة بالنسبة لهم ومقام الشيخ لديهم .. وأمام دموع التوبة المنهمرة في هدوء وعبارات النصح الأكيدة لم يسع أكثرهم إلا الجزم ، فما لبثوا أن مدوا إليه أيديهم يعاهدونه على حسن المآل إلى الأبد .

أما الذين سخروا من توبته فقد أبادهم الله واحداً تلو الآخر بينما تأسست القرية فسميت « قصر الحاج » وأصبح الشيخ عبد الجليل المحرم من ذوي النزاهة والكرامات الشهيرة في تلك النواحي حياً وميتاً . وأعقابه ممن لا يأكلون الحرام وإن كان جمعهم أمياً في الغالب رجالاً ونساء ...

الرجوع إلى الله

٨

الرحلة القاسية

سكنت العاصفة بعض الشيء فقال الأخوان لزميلهما الأسود : يجب أن نذهب ! فلم يجب ، بل تطلع بعينيه الضيقتين إلى الساحل ، وهز رأسه مندداً بتلك الفكرة . فلما ألحّا عليه قال لهما : العاصفة وإن ابتعدت حيناً فإنها ستعود قريباً فأي ميناء نقصده في بضع ساعات !

قال الأكبر : ألا تعلم أن بين درنة وبنغازي ساحلاً لا يخلو من محلات تعد مرافىء طبيعية لمثل هذا المركب الشراعي . قال الأخير : إن ما لدينا من الزاد يكفي ليوم وصولنا « طرابلس » وحمولتنا من « الشعير » الذي يعد أخف من القمح وغيره .

هنا وقف الأسود فقال لهما محتداً : كأني بكما تجهلان مصائب البحر أما أنا فلا أجهل ذلك ، وأرى أن رحلتنا ستكون قاسية ، وقاسية جداً .. فسأله الأصغر : لماذا ؟ قال : لأني أخاف من عواصف البحر .. فأنا رجل خلق في صحراء « الكفرة » أصمد لزوابع الرمال التي لا يتعدى خطرها عن دفن قافلة .. فلم يمهلاه ليتمّ حديثه بل ضحك الأخوان .. هما لا يجهلان حياة الصحراء لأنهما ولدا من أبوين أصلهما من واحة « الجغبوب » ولكنهما شبّا وترعرعا في واحة « الكفرة » أيضاً . ثم اختارا أولاً « درنة » الجميلة . ثم بنغازي . وبعد

حياة مضطربة جرّبا حياة البحر . وتوفقا لشراء مركب أخذا يسافران فيه ويحمّلان البضائع لجميع البلاد من درنة إلى طرابلس طول السنة ، فكانا يختاران مثل هذا الأسود القوي لمصارعة الأمواج ، ولم يصادفهما ما يخيفهما من دخول البحر مرة أخرى . أما هذه المرة فقد ارتبكا لما لاح على وجه الأسود الذي يسمي نفسه « المبروك » ولكنهما عزما على السفر أخيراً ، فوجدا رفيقاً جديداً يسمي نفسه « الوافي الدوكالي » لم تكن لهما به معرفة طويلة .

* * *

رفع المبروك الشراع في حدة فقال الأخ الأكبر واسمه أبو زيد: باسم الله وعلى الله الاتكال .. رددها معه الأخ الأصغر وكان اسمه « علياً » . فانساب المركب ميمماً جهة الغرب ، يتهادى بشراع جديد ، فهبت عليهم نسائم البحر باردة منبئة بدخول فصل الخريف . أما البحر نفسه فكان في غاية الهدوء والصفاء كقطعة من الحرير الأزرق . فابتعدوا عن الساحل متعمدين ، يتجاذبون أطراف الحديث فقال أبو زيد :

ـ أخبرتني أمي ـ رحمها الله ـ بأنها ما كانت تعرف من أخبار بني هلال شيء ، وهي في واحة الكفرة . لأنها قليلة الاختلاط عديمة الميل لسماع الخرافات . وفي ليلة من الليالي وهي حامل بي رأت في المنام رجلاً أسمر بادي الشجاعة يدخل البيت ويقول لها: أنا أبو زيد الهلالي ! أنا صاحب الأخبار السائرة ، والأمثال المتواترة ، أنا مفخرة الفرسان ، أنا سيد القوم وحامي حمى

الهلاليين .. سيكون لك ابن فسميه « أبو زيد » ولا تخافي عليه من المغامرات . قالت أمي ، فلما أخبرت أباك لم يعترض ، بل قال لي : لي بعض المعارف من « المغاربة » أهل تونس والجزائر وما جاورهما ، استوطنوا « الاسكندرية » يتاجرون بين الواحات الكثيرة ويطيلون الإقامة في « الجغبوب » وكنت أنا ممن يسافرون بجمالهم مع أولئك التجار . أو أنزل عندهم ما ما أقمت هناك ، وأجد منهم أخوة خالصة . فكنا نسمر في صحن « المسجد الكبير » نمتع النظر بقبابه وأروقته الناصعة ، كان أحدهم عالماً يصحب كتباً كثيرة . منها الكتب التي تتحدث عن « الهلاليين » وأبو زيد خاصة ، إذ يقال إنه لم يغلب قط ! حتى ذهب اسمه مضرب الأمثال .

قال الوافي الدوكالي ماكراً إذ رأى غرور صاحبه : يقال إن أبو زيد دخل بعض المدن العامرة بخصومهم (الزناتيين) بمهمة التجسس طبعاً ! فاضطر للتخفي .. فقبل الاشتغال أجيراً عند أحد الأغنياء ! فسأله : ألك علم بالزراعة ؟ لأنه كان في حاجة لمزارع خبير فأجابه أبو زيد مؤكداً ذلك فذهب به إلى مزرعته الجديدة ، فتركه فيها . فلما رجع إليه في اليوم التالي يزوره وجده مشمّراً يقلع الأشجار والمشاتل فيرمي بها على الحواجز (الطوابي) فهاله الأمر فقال له أبو زيد : « لو كان بو زيد عمار عمر سواني بلاده ! وامنين بو زيد خلاي ما نصبح إلا حمادة ! » .

فقال صاحب المزرعة : عرفتك ! أخرج واطلب ما تراه من المساعدة في غير أبواب الخيانة الوطنية أو الشرف ، ثم أخذه معه لبيته وهو يقول : مثلك لا يهان !.

قال الأسود وهو يصلح الشراع : لو حدثتكم بما رأيته من العجب الذي لم تروه .. فاعتدلوا وهم يستغربون ما لاح على وجهه من أمارات الهدوء والمؤانسة فقال له علي : اجلس وربك وحدثنا أكان ذلك في البر أم البحر ؟ قال الأسود : بل في البر ! في الصحراء ، في وادي الآجال ! وجبل الهروج الأسود ! ثم

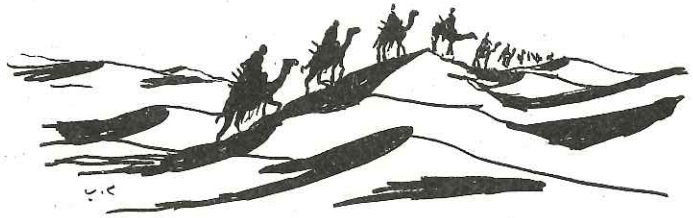

استرسل في غمغمة : قد أنهيت الأربعين بلا شك فلا خوف عليّ ! وقبل أن يسألوه عن سبب غمغمته أومأ إلى أبي زيد بمراقبة المحرك ، وجلس بجسمه العملاق على حافة الحاجز وبدأ يتكلم وقد غاضت بشاشته المفاجئة : « كنت صبياً عندما أرسلني أبي مع بعض أقاربي في قافلة إلى واحة « غات » البعيدة .. كنا خمسين جملاً مع نحو ثلاثين رجلاً أنا من جملتهم .. وصلنا الواحة

أو المدينة الشهيرة على الأصح على أحسن ما يكون ، وأقمنا أسبوعاً نستريح من عناء السفر الطويل وكان الفصل صيفاً . وأخيراً خرجنا مساء أحد الأيام بأحمال قليلة وكلنا ركوب ، نريد الرجعة من أقصر طريق .. السير في الصحراء لا يكون إلا ليلاً .. فكان معنا بعض من أعيان « غات » يقصدون الواحات النائية من « فزان » فتطوع أحدهم ليكون دليلنا لتوعك فاجأ دليلنا الأول . وفي الليلة الخامسة وجدنا أنفسنا أمام جماعة غريبة من الرجال فتقدم أحدهم فقال : قفوا لا تتحركوا ! فوقفنا صامتين . وبعد أن مر بنا جميعاً قال : الآن أفسدتم علينا ما عزمنا عليه من حفل كعادتنا ما دام هذا المصباح — وأشار إلى القمر المضيء — في كبد السماء بدراً تاماً .. ولهذا سننزل بكم القصاص ونرسلكم إلى وادي الآجال سبعاً وإلى الهروج الأسود سبعاً ، تخدمون فيها أطفالنا غير الحاضرين معنا .. ثم أشار إلى كبير منهم يتدحرج من القصر كالقزم : اجعلهم لا ينطقون ، ولا يسمعون أيضاً من الساعة !فإذا بنا أصنام نتحرك بالهمز والإشارة لا غير !. ثم وجدنا أنفسنا وسط وادٍ مظلم من شدة الانخفاض وكثرة الأشجار المتعانقة ، لا تنفذ إليه أضواء الشمس ولا أنوار الفجر ، مملوء بالوحوش الضارية الشرسة ، والزواحف الهائلة ، فإذا بجموع من المخلوقات تلتف حولنا — مخلوقات لا تشبه الناس ، قصيرة ، دميمة ، منها بعين واحدة ومنها بثلاث ، وتختار كل جماعة واحداً منها وتذهب به راقصة من الفرح ، فكان نصيبي

جماعة لا تقل عن مائة صغير في أشكال مقبولة من الدمامة والغرابة ، فسررت في نفسي لأنها مجموعة فوق ما قلت غير مرعبة في حركاتها كثيراً ..

* * *

وقفوا بنا عند فتحة بين جلاميد الصخور السوداء ونزلوا ، ثم أمسكوا بيدي فأنزلوني في رفق وهم يربتون على كتفي ، وإذا بنا في شوارع فسيحة وقصور مشيدة كلها من الفضة والذهب ، مصابيح في الداخل والخارج ، أحجار كبيرة — علمت فيما بعد أنها من « الماس » النفيس فأقمت معهم في حياة أشبه بحياة الفردوس الموصوفة عند الفقيه ، فكلما طلبوا مني ألعاباً جئت لهم بشيء جديد عما أريتهم ، جاءوا إليّ بأكياس ألعابهم وأعطوني حفنات من ذلك «الحصى الملون» فحفظته في كيس طلبته خصيصاً لذلك من أكبرهم سناً فكانت — حسب الظاهر — فتاة كريمة ، تعرف عن الناس أكثر من إخوتها وكان من جلد الغزال الذي يركبونه في رياضتهم . فكم كانوا سعداء يوم رقصت أمامهم رقصة جدودي السوادين « الصندا » فذهبت أصغرهم وأجملهم فأتتني بعصا صفراء هدية لي — وقد وجدتها فيما بعد من الذهب الخالص — والشيء الوحيد الذي كان يضايقني هو « قلة النوم » فهم لا يعرفون للنوم اسماً ولا معنى ولا يتركونني دقيقة واحدة ، وإذا لمسوا بي تعباً أجلسوني وأخذوا يعرضون عليّ ما يعرفونه

أو المدينة الشهيرة على الأصح على أحسن ما يكون ، وأقمنا أسبوعاً نستريح من عناء السفر الطويل وكان الفصل صيفاً . وأخيراً خرجنا مساء أحد الأيام بأحمال قليلة وكلنا ركوب ، نريد الرجعة من أقصر طريق .. السير في الصحراء لا يكون إلا ليلاً .. فكان معنا بعض من أعيان « غات » يقصدون الواحات النائية من « فزان » فتطوع أحدهم ليكون دليلنا لتوعك فاجأ دليلنا الأول . وفي الليلة الخامسة وجدنا أنفسنا أمام جماعة غريبة من الرجال فتقدم أحدهم فقال : قفوا لا تتحركوا ! فوقفنا صامتين . وبعد أن مر بنا جميعاً قال : الآن أفسدتم علينا ما عزمنا عليه من حفل كعادتنا ما دام هذا المصباح – وأشار إلى القمر المضيء – في كبد السماء بدراً تاماً .. ولهذا سننزل بكم القصاص ونرسلكم إلى وادي الآجال سبعاً وإلى الهروج الأسود سبعاً ، تخدمون فيها أطفالنا غير الحاضرين معنا .. ثم أشار إلى كبير منهم يتدحرج من القصر كالقزم : اجعلهم لا ينطقون ، ولا يسمعون أيضاً من الساعة !فإذا بنا أصنام نتحرك بالهمز والإشارة لا غير !. ثم وجدنا أنفسنا وسط وادٍ مظلم من شدة الانخفاض وكثرة الأشجار المتعانقة ، لا تنفذ إليه أضواء الشمس ولا أنوار الفجر ، مملوء بالوحوش الضارية الشرسة ، والزواحف الهائلة ، فإذا بجموع من المخلوقات تلتف حولنا – مخلوقات لا تشبه الناس ، قصيرة ، دميمة ، منها بعين واحدة ومنها بثلاث ، وتختار كل جماعة واحداً منها وتذهب به راقصة من الفرح ، فكان نصيبي

جماعة لا تقل عن مائة صغير في أشكال مقبولة من الدمامة والغرابة ، فسررت في نفسي لأنها مجموعة فوق ما قلت غير مرعبة في حركاتها كثيراً ..

* * *

وقفوا بنا عند فتحة بين جلاميد الصخور السوداء ونزلوا ، ثم أمسكوا بيدي فأنزلوني في رفق وهم يربتون على كتفي ، وإذا بنا في شوارع فسيحة وقصور مشيدة كلها من الفضة والذهب ، مصابيح في الداخل والخارج ، أحجار كبيرة – علمت فيما بعد أنها من « الماس » النفيس فأقمت معهم في حياة أشبه بحياة الفردوس الموصوفة عند الفقيه ، فكلما طلبوا مني ألعاباً جئت لهم بشيء جديد عما أريتهم ، جاءوا إليّ بأكياس ألعابهم وأعطوني حفنات من ذلك «الحصى الملون» فحفظته في كيس طلبته خصيصاً لذلك من أكبرهم سناً فكانت – حسب الظاهر – فتاة كريمة ، تعرف عن الناس أكثر من إخوتها وكان من جلد الغزال الذي يركبونه في رياضتهم . فكم كانوا سعداء يوم رقصت أمامهم رقصة جدودي السوادين « الصندا » فذهبت أصغرهم وأجلهم فأتتني بعصا صفراء هدية لي – وقد وجدتها فيما بعد من الذهب الخالص – والشيء الوحيد الذي كان يضايقني هو « قلة النوم » فهم لا يعرفون للنوم اسماً ولا معنى ولا يتركونني دقيقة واحدة ، وإذا لمسوا بي تعباً أجلسوني وأخذوا يعرضون عليّ ما يعرفونه

من ألعاب : ألواح أشبه بالطيور يركبونها إلى الوادي المظلم ، يتقلبون بها كما يشاءون في الفضاء ، منازل إذا أمروها تمشي ، وخيول وأنواع الحيوانات كلها من ذهب ، لا تأكل ولا تشرب ولكنها تلبي جميع الأوامر !!

* * *

في يوم من الأيام رأيت جماعتي يبكون ، ويلتفون حولي في حلقات ويلاطفونني أكثر .. ولم أفهم لأني أصم ، أبكم .. ثم رأيت سيدتي الكبيرة تأخذ بيدي في حنان بالغ وتصعد السلالم الفضية وإذا بي أجد نفسي في الوادي المظلم مع رفاقي أهل القافلة. فأركبونا ألواحاً طارت بنـــا حيناً فلما نزلنا منها أدخلونا من أبواب عظيمة جداً إلى مدينة تفوق ما رأيته بهجة وجمالاً .. فأصعدونا إلى ساحة بهرنا مـــا فيها من العجائب الفاخرة ، فقدمونا لمخلوق جلس على كرسي عالٍ مرصع وكل ما عليه من ثياب ومطارف يضيء بأشياء كالمصابيح وعلى رأسه شبه عمامة من نفس تلك الأحجار . ابتسم لما رآني فقربني إليه وهو يحدق بي ثم قال لواحد منهم شيئاً فأومأ إلينا فإذا بنا نسمع ! وأشار ثانية فإذا بنا نقول بصوت واحد : الحمد لله ! فابتعد القوم في رهبة ثم تراجعوا . فأشار الملك لأحدهم فوقف يقول : أيهـــا الضيوف ! اخترقتم نطاقنا فأردنا معاقبتكم عقب انتهائنا من الاحتفالات مباشرة ، ولكن كنتم مسلمين ، فشهدت سيرتكم

السفر في الصحراء .. ممتع ولكنه قاسٍ

على حسن نوايا المسلم وصدقه في عمله وأمانته فيما يؤتمن عليه ، فلم يسعنا إلا تكريمكم .

هذا مليكنا العظيم ، وهذه عاصمة ملكه الرائعة في « جبل الهروج الأسود »، أما جمالكم فحاضرة وعليكم أن تركبوها ويسمي كل منكم بلدته ويغمض عينيه برهة ، يجد نفسه بين أهله بما عنده.. ولكن عليكم شرط واحد!وإلا عاقبنا كم إذا لم تعملوا به ولو بعد حين ! فسألناه وقد غاض سرورنا : فما هو الشرط ؟ قال الملك بصوت لطيف : لا شيء غير الصمت وعدم التحدث بما رأيتم عندنا وما حدث لكم معنا إلى أن يتجاوز الواحد منكم الأربعين ! ثم قربني إليه متحبباً وهو يقول: كم سرّ بك أولادي وبناتي! ولولا حزن أبويك لأبقيتك لهم معززاً مكرماً! ولما خرجنا رأينا أنفسنا على ظهور جمالنا وأمامنا جبل الهروج الأسود [1] الذي يعرفه كل من اجتاز الحمادة والصحراء ! فأغمضت عيني فوجدت نفسي أمام بيتي المبني من الطين وفي حمولتي ما كنت نويت إحضاره لأهلي من الواحات ، فوق سبائك الذهب ، والعصا التي أهدتها إليّ سيدتي الصغيرة بنت الملك .. والفصوص الثمينة ، فاصطلح حالي وقمت بواجباتي ، فجددت كل قديم ، حتى قبر جدي وجدتي ..وما كثرة أسفاري

---

(١) الهروج الأسود: ما زال طبعاً يحتل مكانه في الصحراء الليبية وكذلك وادي الآجال حيث سنجد أغزر المياه إن شاء الله .

معكم إلا لحسن صحبتكم التي ساعدتني على معرفة هذه الديار الكريمة،وإن لم تستطيعوا تخفيف أسفي على حياة وادي الأجال، بين أولاد الملك ! .

* * *

سكت المبروك فجأة ولم يزد شيئاً ! بل نظر إلى الأفق المتلبد حيث غربت الشمس مرتبكاً . فقال الوافي : عاصفة !.. وقال أبو زيد : مع ظلام الليل !. فأردف على ذلك الشاب المرح : إيه وربي بدأ البحر يعلو .. فتنهد المبروك وأسرع للعمل الذي أصبح يتقنه وهو يقول بصوت كسير تملأه الندامة : لعلّي لم أغلق باب الأربعين المشئومة غلقاً تاماً فإذا رجعتم فوفوا لأولادي فأعطوهم ما تبقى لي في مدينة درنة ! .

فبينما كانت الرعود تقصف والبروق تخطف الأبصار ، وأمواج اليم الهائج تلتطم ، ثلاثة أيام بلياليها بعيداً عن الساحل ، انقلب المركب الصغير بمن فيه ، بعد أن يئسوا من النجاة .. فصاح الوافي : يا سيدي الدوكالي ! ثم ابتلعتهم موجة هائلة.. ولكن جماعة من حوريات البحر الخيرات شهدن ذلك المنظر وسمعن الصيحة اليائسة فشق عليهن أن يذهب أصحابها وإن لم يفهمن معنى « الدوكالي » فأسرعن بإخبار أبيهن فأنقذهم جميعاً ، فأنزلوهم ضيوفاً أعزاء بصعة أيام استردوا فيها أنفاسهم الخائرة ، ونعموا بمسرات أهل البحر الهادئة . وفي أحد

الأيام سألهم مضيفهم : ما هي عادتكم عند مسير أحدكم إلى وجه ربه ؟ فذكروا بعض الشيء فلم ينتهوا حتى تجهم وجهه فقال لهم : ألستم مسلمين مثلنا ؟ وكيف تعصون الله وتفشون السر ، وتخونون العهد وتبكون الميت ؟. فقالت أصغر الحوريات : العفو يا أبي ، العادة طبع ثان ، وأهل البحر عطوفون ! فتفضل عليهم بالمساعدة لمن أراد الرجوع منهم إلى أهله !

انحنى الأب البحري هنيهة يفكر ثم قال : هيئي لهم ما أردت !. هنا وقف علي يتلعثم لأول مرة ليقول : أرجوك يا سيدي إبقائي في هذا المحيط السعيد ، فليس لي من يشغلني ! فأجلسه وهو يعده باسماً « لتكن إبني إن شاء الله ! » .

بينما كان المبروك يجتمع بأسرته هانئاً ويسوق لهم قصته في صورة حكاية ممتعة ، كان أبو زيد يحتضن أمه العجوز راوياً لها أعذاراً وجيهة عن تخلف أخيه علي ، أما الوافي فكان يحط رحاله أمام « سيدي الدوكالي »[1] الجليل ويطلب من الوكيل « خلوة » يجاوره فيها بقية عمره معاهداً نفسه على انفاق تلك الكنوز في حضرة ذلك السيد اعترافاً ببركاته التي كانت سبباً لنجاتهم جميعاً .

---

(١) سيدي الدوكالي ولي في بلدة مسلاتة ، يذكر بالبركات ، حتى الآن .

٩

المروءة[1]

مر « المشوق »[2] الأبيض في شوارع مدينة « برنو » السودانية وحوله جماعة كبيرة من أهل البلاد متجهين إلى منزل الزعيم ؛ فوجدوه واقفاً أمام داره ومعه طفلاه ، والدمع ينهمر من عينيه الوديعتين على لحيته البيضاء وهو في قميصه الأبيض ومئزره المخطط وعمامته الكبيرة ؛ فما إن وصلت الجماعة المتحمسة اليه حتى بدأهم بقوله : لقد عزمت أيها السادة .. لقد حن قلبي لرؤية « الديار المقدسة » وأداء الفريضة ، لقد هزني الشوق وأزال كل شك وتمهل من أعماقي ، لقد عزمت ! ثم رفع يديه وعينيه إلى السماء وهتف بصوت حنون في لهجته البرناوية « اللهم سهل طريقي وبلغني قصدي ، وتقبل مني هذه النية الخالصة والعزم الأكيد »

---

(١) كنت قد جعلتها « المروءة الحقة » ولكن جماعة طارق رحمه الله في جامعة مصر كلية التجارة اختصروه .

(٢) المشوق المناوي في موسم الحج يطوف مرغباً المسلمين في تلك الفريضة الكبرى .

ثم قرأ الفاتحة بعربية لا بأس بها فتبعته الجماعة وسار معهم إلى المسجد الرئيسي ؛ فوجدوا أروقته الكثيرة مكتظة بالناس ، تلك الأروقة الملائمة لطبيعة البلاد الحارة ، وهم يتداولون في أمر الحج الأكبر وطريقة السفر اليه . فوجدهم على طائفتين ؛ الأولى تتجه إلى مصر ، والثانية وهي الكبرى ستتجه إلى الشمال الغربي مارة بواحات الصحراء الليبية ثم تنحدر قاصدة مدينة « طرابلس الغرب » مركز التجارة العظيمة في ذلك الوقت .

وفي أيام قلائل خرجت القافلة الكبيرة والزعيم في جملتها ، ومعه ولداه ، وحمولة خمسين جملاً من الجلود المتنوعة ، والفراء ، وريش النعام ، وسن الفيل ، مع مقادير كبيرة من سبائك الذهب التي دست بين الريش الثمين ، شأن زعماء السودان المتعودين على تلك التجارة الرابحة . كما اتبع بعضهم عادتهم في اصطحاب أولادهم الذكور إذا عزموا على الحج .. فودعت القافلة وداعاً حاراً إلى مسافة بعيدة من المدينة ، وكان الشيخ الزعيم على راحلته الهيفاء وعليه المطارف الحريرية ينظر إلى مزارع القصب والمراعي المنبسطة نظرة وداع أخيرة في حنان ووقار ، فسلسلت الجمال بعضها إلى بعض ، وكان الطفلان في مركب مريح على الجمل الذي يلي راحلة أبيهم ، وعمر الأصغر لم يتعد السنة الثالثة . فداعب الأكبر أخاه قائلاً « ألا تخاف من الليل ؟ » قال « لا ! » فقال له « ألا تخاف الأسد ؟ » قال « لا ! » فزاده « ألا تخاف الرجال

البيض؟ » قال « لا ! » ضحك الغلام الجميل ضحكة أظهرت الوسم الدقيق الذي في جانبي فمه وقال في مرح استجلب سمع أبيه « ولماذا لا تخاف من كل هذا » قال في براءة وهو ينظر إليه واضعاً رأسه على ركبتيه « لأنك معي ! » فضحك أحد الرجال وسأله « فإذا لم يكن معك ؟ » قال « أخاف من كل شيء ! » ضج السامعون من الضحك إلا الزعيم الشيخ الذي التفت بإشفاق فكأنه يقرأ سطوراً من الغيب فهمس « لعله يتحقق ظنك أيها الصغير ! » أما الغلام فكان لا ينفك يضحك ويقول لأخيه « كن مطمئناً فأنا معك أبداً .. » ثم يقبله مداعباً ..

لكن ذلك الحبور والاطمئنان لم يدوما طويلاً ؛ إذ اعتلّت صحة الزعيم وأصبحت حاله من سيىء إلى أسوأ وهو يئن متحسراً على حالة ولديه . وبعد شهرين توفي الشيخ في الطريق حزيناً لعدم وصوله إلى بغيته المقدسة « الحج إلى بيت الله الحرام » فكان في القافلة أقارب له وأحباب لم يتوقفوا ، ولا فكروا ، بل استمروا في سيرهم إلى أن وصلوا مدينة طرابلس الغرب الآمنة في حكم الرجل الطيب « رجب باشا » المحبوب للخاصة والعامة ، لتقديره مصالح البلاد ، وجهاده في سبيل إنهاض الشعب الكريم ، وتخفيف الضغط عليه ، فباع التجار كل ما عندهم فركبوا البواخر المهيأة للحجاج وتركوا الصبيين في شوارع المدينة التي لا يعرفون من لغتها كلمة واحدة !

* * *

ولكن الخالق لا يترك مخلوقاته ، فمن حسن حظهم ، أن

عشر بهم « الشيخ ألماس » رئيس شرطة طرابلس — وعميد طائفة السودانيين — عقب سفر جماعتهم مباشرة ، وكان يحسن لغات السودان ويجيد « البرناوية » خاصة ، فرق لها قلبه المفطور على الرأفة ، فصحبها إلى بيته وقدمها لزوجته « صنديدة » فأوصاها بها خيراً وهو يقول : « سوف أفهم حقيقتها من الكبير بعد أن يذهب حزنه ونعيه » ، فاجتهدي في إسعادهما بين أبنائنا .

فلما جلس « ألماس » يوماً مع الغلام يطارحه الحديث عرف منه الحقيقة كلها ؛ فأعجب بذكائه وحسن أخلاقه ، وحنانه وعطفه على أخيه ، ولما ذكر أباه وأيامهم السعيدة بكى بكاءً مراً كاد ينفطر له قلب « ألماس » الرقيق ، قلب « الشوشان » المحترم من جميع الكبراء والعظماء فقال له : لا تبكِ يا بني ! فقد منعك الله من كل سوء ولن يصيبك إلا ما يصيب أولادي ! .

فقال الغلام « شكراً لك يا سيدي على مروءتك الحقة ولكن .. » فربت « ألماس » على كتفيه وهو يحدق في ملامحه « البرناوية » الجذابة ، ثم أخذ يفرك أذنه في لطف ويسأله : ولكن ماذا ؟ لا تخفِ عني شيئاً يا بني ، تكلم واطلب ما تشاء ! قال الغلام مبتهجاً « عليك أن تتأكد بأني سوف أعيش طوع

إرادتك في جميع الخدمات التي تطلبها مني ولا أطلب غير تعليمنا ! لأني كنت أذهب للكتاب وأحب الحفظ كثيراً ! » فعجب الرجل الطيب ووعده أن يحقق رغبته بحول الله .

وفي الصباح التالي أخذه إلى كتاب « المحلة » في الشارع القريب فأوصاهم به كما يجب ، وكم كان سروره كبيراً يوم رجع إلى الشيخ يسأله عن ولده الجديد فأجابه هاتفاً « بالله عليك يا ألماس ! يا أنيس الأحباب وصديق العظماء ! أين وجدت هذه الشعلة القوية من الذكاء ؟ إنك كثير الأبناء ، فهل سمع بك أهل برنو وبأسلوبك التربوي فوكلوك على أولادهم النجباء ؟ » .

قال ألماس معتزاً بنفسه « نعم يا سيدي وأشكرك على كل ما قلته ، فهذه شعلة عجيبة حبيبة كلفتني بها الأقدار ، أرجو أن أخدمها بإخلاص ، إنه يتيم كريم يا سيدي » قال الشيخ : إنها « المروءة » يا ألماس لا عدمتك هذه المدينة .. وبعد مدة قصيرة رأى ألماس أن طفله الأكبر وهو يبلغ الثانية عشرة من عمره جدير باهتمام أكثر ، فذهب يقابل بعض الخاصة في قصر (الباشا) وأفهمه بكل شيء . فرجاه بسط الحكاية تفصيلاً لحضرة الباشا . فما إن سمع الباشا النبيل بالخبر حتى أمر بإحضار « ألماس » وأكد عليهم إحضار الولدين معه في لباسهم السوداني التام .. فلما دخلوا حيوا الباشا بلغتهم فدمعت عيناه فتقدم نحو الغلام يتأمله ثم ربت على كتفه وهتف به : « طارق ! لا تخف يا بني ! ستعيش

سعيداً إن شاء الله بين أسرة أبيك ألماس الشفوق تحت رعايتي . ستصبح رجلاً وأخوك معك لن يفرق بينكما إلا الله . سأراك كل يوم .. وستخبرني بكل شيء » ثم انحنى على الصغير الوجل باسماً وقال : وأنت يا « عرفان » قر عيناً بأخيك فلا تحزن قط ! ركع ألماس من شدة الفرح يقبل الأرض بين يدي الباشا في تأثر بالغ . وأمسك الباشا بيده وقال لألماس وهو ينهض :

« إسمع ! إني أحببته منذ الساعة ، إنهم سيعيشون على حسابي وما عليك إلا مراعاتهم ، فأنت أدرى بطباع أمثالهم . وثق أن إخبارك إياي عن هذين اليتيمين من « المروءة الحقة » بارك الله فيك » . كرروا التحية الخالصة وانصرفوا . خرج السوداني الذكي يقود أخاه ويتبع أباه (ألماس) من القاعة الفاخرة ونزلت ابتسامة ذلك الرجل العظيم على جراح قلبه نزول البلسم الشافي.. وأزالت عن عينيه غشاوة اليتم فأرته المدينة السعيدة وأسرته الجديدة في هالة من أنوار الأمل المديد وفي صورة غير صورتها الأولى في نفسه .. فما وصل المنزل حتى عانق أباه « ألماس » وأمه « صنديدة » وقد شملهم السرور العميق .

***

في أمسية من أمسيات (دمشق) الحلوة في فصل الصيف

جلس الكهل الأسود قبالة زوجته الحسناء الشركسية ، وطفله العزيز على ركبتيه ؛ يتحدثان ، فتشعبت بهم الذكريات وهو يسرد على مسامعها أدوار تعليمه ، وتوظفه وجهاده ، ثم يرجع ويذكر ابن أخيه «عمر» حفيد ألماس فسألته ضاحكة « أراك تفرط في حبهم وتقديرهم الحاضر منهم والغائب ! ولم ذاك ؟ » قال في غمغمة الأبي « وربك لم أبلغ في إيفاء ربع الدين الحقيقي .. إن مقام أبي « ألماس » وزوجته لمقام والدي الذي فقدته في صحراء ليبيا ، وأمي التي خلفتها في برنو ! إني عشت ما عشت لم أتكدر منهم أو من أولادهم ، وبودي أن أحبهم جميعاً ، وأن أفي بواجبي نحوهم كاملاً يا عزيزتي » .

فقالت « بالله ماذا كان يحدث ، لو وفى الأقارب والأحباب وأعادوكم إلى برنو ؟ » قال في لهجة متزنة لا يشك سامعها في أن صاحبها تركي صميم من عظماء استانبول في نبله ؛ وهو الذي يجيد أكثر من لغة افرنجية : تكون خسارتي إلى الأبد ! ألا ترين كما كنت ولا أزال أقول : إن يد مولاي « طيب الله ثراه» البيضاء لا تنسى ! وإن مروءته لهي « المروءة الحقة » ولولا فضل الله ثم فضله ، لكنت في خبر كان .. يتيم سوداني بين المتشردين .. ألا رحم الله ذوي المروءة الحقة ، رحم الله كل من ترك أثراً طيباً في آفاق « طرابلس العزيزة » .

قالت « ما هذا الحنين ؟ » : فقال لها جاداً :

« إنه الحق يا سيدتي ، فمن ينكر الحق الصراح ؟ من ينسى المروءة الحقة ؟ [1] » .

(١) هذه القصة واقعية وأنا أعرف صاحبها نفسه وقد سمعت أكثرها منه، ثم أعرف زوجته الكريمة وابنته وقد قالت لي بعد وفاته : عندما أهديته نسخة من القصص ، وسألناه عما جاء عنه قال : صحيح ، مع أنه كان كثير الشرود كما رأيته بسبب مرضه. فكأنه احتفظ بذاكرته للماضي فقط ، الماضي المجيد ماضي الجهاد في سبيل الحق .

١٠

فزان البعيدة

جلس « إلهامي » أفندي على مقعد مريح تجاه نافذة مكتبه الأنيق ونشر على ركبتيه « ألبوماً » نادر الوجود في مكاتب « استانبول » حوالى سنة ١٨٧٠ م، كان أحضره معه من باريس، يحتوي على صور زيتية قيمة جداً رغم صغرها؛ وأكثرها مذهب الأطراف تذهيباً يليق بذلك الألبوم الفاخر ، ذي الغلاف الحريري ؛ وهو في ذلك كله يطلب الترويح عن نفسه الفتية المهمومة لشيء واحد؛ فشله في الرجوع ثانية للسياحة بعد صدور المنع البات من مصادر عالية ، اتهمته بالتستر وراء مفخرة العلم والاطلاع، من أجل قضايا مضرة بالنزعة القومية والدينية شأن بعض الشباب في تلك الأيام . فقد أعجب من نفسه وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من سني شبابه كيف وقف يدافع في حرارة وإباء ، ويؤكد للمحقق الكبير شغفه بالعلم والمعرفة ، شغف المسلم الحر .. الخ . حتى همس المحقق مشفقاً : لا تردد كلمة « الحرية » لأنها تنافي المبادىء الإسلامية الحنيفة !.

قالت « ما هذا الحنين ؟ » : فقال لها جاداً :

« إنه الحق يا سيدتي ، فمن ينكر الحق الصراح ؟ من ينسى المروءة الحقة ؟ [1] » .

(١) هذه القصة واقعية وأنا أعرف صاحبها نفسه وقد سمعت أكثرها منه، ثم أعرف زوجته الكريمة وابنته وقد قالت لي بعد وفاته : عندما أهديته نسخة من القصص ، وسألناه عما جاء عنه قال : صحيح ، مع أنه كان كثير الشرود كما رأيته بسبب مرضه. فكأنه احتفظ بذاكرته للماضي فقط ، الماضي المجيد ماضي الجهاد في سبيل الحق .

١٠

فزان البعيدة

جلس « إلهامي » أفندي على مقعد مريح تجاه نافذة مكتبه الأنيق ونشر على ركبتيه « ألبوماً » نادر الوجود في مكاتب « استانبول » حوالى سنة ١٨٧٠ م، كان أحضره معه من باريس، يحتوي على صور زيتية قيمة جداً رغم صغرها؛ وأكثرها مذهب الأطراف تذهيباً يليق بذلك الألبوم الفاخر ، ذي الغلاف الحريري ؛ وهو في ذلك كله يطلب الترويح عن نفسه الفتية المهمومة لشيء واحد؛ فشله في الرجوع ثانية للسياحة بعد صدور المنع البات من مصادر عالية ، اتهمته بالتستر وراء مفخرة العلم والاطلاع، من أجل قضايا مضرة بالنزعة القومية والدينية شأن بعض الشباب في تلك الأيام . فقد أعجب من نفسه وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من سني شبابه كيف وقف يدافع في حرارة وإباء ، ويؤكد للمحقق الكبير شغفه بالعلم والمعرفة ، شغف المسلم الحر .. الخ . حتى همس المحقق مشفقاً : لا تردد كلمة « الحرية » لأنها تنافي المبادىء الإسلامية الحنيفة !.

فأجابه مستغرباً : أليس الإسلام دين الفطرة؟ وهذه الفطرة الشريفة هي خلاصة الحرية المنشودة لدى كل إنسان؟. هز المحقق رأسه مستنكراً تلك الجرأة ثم رفع صوته المهذب ونظراته المهيبة تصب على « إلهامي » أفندي لهيباً مسكناً : يجب يا بني أن تمتثل للأوامر وترضى بالوظيفة المهمة التي أسندت إليك في عاصمتنا الكبيرة ، وتطرد من رأسك الأفكار الباطلة ، فأنا أذكرك بالمرحوم والدك وكيف كان مثالاً شريفاً للتركي الأصيل!

لم يزد « إلهامي» كلمة واحدة ، بل وقف في تأدب ، وانحنى على يد المحقق – بصفته صديق المرحوم والده – فقبلها ، ثم غادره وهو لا يدري وجهة مسيره إلى أن وجد نفسه في مكتب الوظيفة بين جماعة من الشباب ، فلحظه أقربهم إلى المدخل بنظرة عميقة وهو يسائله في رفق يخيل لسامعه أنه يذوب مللاً: هل أرسلوك لنا مكملاً تعساً ؟ فأجفل إلهامي أفندي في حيرة لم تبلغ به حضيض المداهنة : فهل تعد جمعك هنا تعساً أيها المواطن لهذا الحد؟ فقال أحدهم دون أن يرفع بصره عن المكتب وأكداس الأوراق: بل أكثر من التعاسة. فأردف الأول يقول : بل دفين مؤبد أيها الأخ !

فرأى إلهامي أفندي أن يغير مجرى الكلام فقال لهم : أين أجلس ؟ وما هو عملي ؟ فعمت الابتسامة الساخرة أولئك الشبان ! وبعد لحظة قال أهدأهم مظهراً : تفضل يا عزيزي

فاجلس حيث تشاء ! فلا فرق في أمكنة هذا المحل . إنما القصد .. ثم سعل في لباقة وأكمل: أن تكون هنا دائماً وأن يعرفك رجال الأمن ويحفظوا اسمك ! حتى تصبح .. فقاطعه الأول معلقاً : باشا في القصر الهمايوني !

تضايق الهامي فقال : ليس هذا من شأن الشباب المنور ، اتركوا أيها الإخوان الثورة المزاحية ، أليس من الخير أن نؤمن بالواجب في خدمة الوطن ونسعد بالتضحية قدر الإمكان ؟ لكنه لم يسمع منهم غير الضحكات المكبوتة التي زادت ما في نفسه من ضيق جارف لم يذهب عنه إلا ساعة استقبلته والدته فرحة ثم جلسا للغداء على المائدة الأنيقة متقابلين .

* * *

خلا إلى نفسه ليذهب عنها اضطرابها العميق وشردت أفكاره ولم يعدها إليه «ألبوم » الصور المحبوبة لنفسه الشاعرة، المشغوفة بالفنون الجميلة ، فتراخى على وسائد المقعد الوثير وأنظاره الحالمة تسبح في منظر «الدردنيل»غرباً وجنوباً – ذلك المنظر المقابل لنافذة مكتبه من ميدان «السلطان أحمد» الشهير. ولم يتنبه من تلك الحالة إلا على صوت الباب يفتح في رفق، فالتفت بسرعة أوقعت « الألبوم » من على ركبتيه وبعثرت بعض صوره الثمينة ، فرأى والدته وبيدها رسالة .. وبينما هو يتصنع

الابتسامة احتراماً لأمه العزيزة، ويقف ليقرب لها المقعد منحنياً كعادته ، إذا بها تربت على كتفه وتصلح قبة قميصه الأنيق قائلة : إلهامي ! إنك لازلت طفلاً يا بني كما تقول لك خالتك « ولدان ! » .

أمسك بيدها وسألهـــا : وكيف ذلك يا أمي ؟ فجلست « شادية » هانم تتنفس والحنان يترقرق من محياها الجليـــل ثم أجلست وحيدها بقربها وقالت بصوتها الرزين ونغمتها الشعرية رغم سنها المتقدمة للخمسين : نعم صدقت « ولدان » في تسميتك بالطفل الغرير ! وإن كنت من جانبي لا أرى فيك إلا رجـــل المستقبل ، وخليفة فقيدنا الكريم ؟ آه ! إني لم أفكر يوماً مـــا في الحد من حريتك ، ولكن الهواجس التي خلفتها طفولتك البريئة تجعلني أحب الاطلاع على هذه الرسالة الرسمية !. إلهامي بني ! لا تخف عن أمك شيئاً مما قدر لشبابك من متاعب ! إن الأم التي سبحت لربهـــا شاكرة على وجودك تحب أن تقاسمك همومك .. وأن تسير معك ثابتة ولو أرسلوك إلى (فزان) البعيدة .

ضحك الشاب وهو يصلح شعره البنـّي اللامـــع ضحكة يخالها الناظر إلى محياه النبيل عميقة وقال : وهل أنت متأكدة يا أماه من أن « فزان » بعيدة ؟ ولكنها لم تشاركه المداعبة . بل استمرت مكانها تقرأ من الغيب صفحة مفتوحة : متأكدة يا بني من

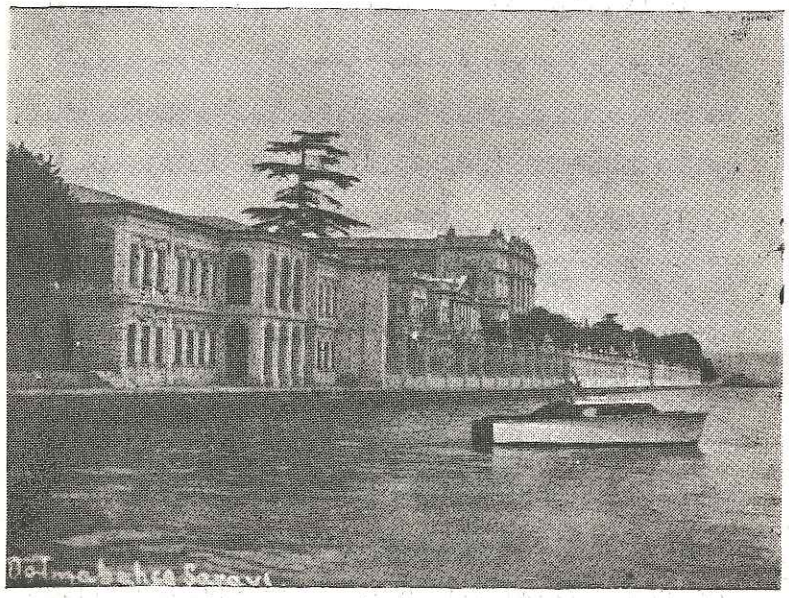

إن الرفاهية وحدها لا تكفي لإسعاد الإنسان

أشياء كثيرة ، جعلتني أتعرف إلى موقع « فزان » من الصحراء المحرقة . ثم مزقت غلاف الرسالة وأخذت تقرأها صامتة .

كانت « شادية هانم » بنت أسرة عريقة من أسر العاصمة الإسلامية إذ ذاك؛ لم تحرم من التعليم والعناية . كما كان لها أقارب كثيرون يشغلون مراكز مهمة، لذلك كان زواجها من«فريدون» بك حلقة مفرغة من شدة الانسجام لأصالته وثقافته وطموحه المبكر ؛ ولكنه ودع الدنيا بإصابة خاطئة أثناء مرافقته لأمير الحج التركي في الموسم العظيم، وهو كالأسد قوة وشجاعة؛ وابنهما لم يتعدّ إذ ذاك الخامسة من عمره .. فأقبلت على حياة الترمل صابرة محتمية بالأهل والوطن ، وعاشت دون أن تعرف معنى للصدمات غير فقده ، إلى أن رجع ابنها في ذلك اليوم يخبرها في عدم مبالاة ، بذهابه إلى المحقق ، ومنعه من السفر وتوظيفه في العاصمة الخ . فلما أجالت في تلك الدقيقة نظرها في الأسطر القليلة أنّتْ كالجريحة ومدت إليه الورقة بيد ترتجف من الهلع ! فإذا به يتبين هذا : « المرجو من الأفندي الحضور إلى الديوان العالي بصحبة الحامل » فسألها مخففاً همها بشجاعته : « وكيف نعطل عليه يا أمي ؟ وقد ظننته ذاهباً » ، قالت : « أرجو منك التفكير، إني أكرمت الرجل فتركته مع خالك على أحسن ما يكون ! فهل أنت مصمم ؟ » . وفي لحظة فهم الإبن أمه كما هي عادته ، فابتسم وهو يقف ويفك أزرار قميصه « أنت

مستعدة للحاق بي حتى في « فزان » البعيدة ؟ وأنا مصمم على إزالة كابوس الشك عني فوق تلك الكثبان المحرقة ! .

* * *

كانت الساعة حوالى الرابعة بالتوقيت التركي ، عندما نزلت « شادية هانم » من عربتها أمام سلالم القصر الرخامية الجميلة تتبع خطوات « الآغا » الذي استقبلها بكل احترام ، وكانت عليها (حبرة) سوداء محتشمة وقد رفعت النقاب عن وجهها الكئيب، فدخل بها باب (الحرملك) من قصر[1] (طولمة باغشة) الجديد، الذي دشنه (السلطان) في تلك المدة القريبة ، فأسكن أهله فيه . فكانت الجداول المنمقة ، ومنظر النوافير البديعة ، تزيد في مظهر السراي العظيمة روعة . ولكن السيدة ما كانت تفكر في شيء أو تلتفت إلى غير مقابلة (القادين أفندي) المبجلة .

سلمها الآغا إلى جارية مسنة لم تتأخر كثيراً في أخذها إلى قاعة فسيحة تشرف على (البوسفور) امتزج في تأثيثها الذوق التركي بالذوق الإفرنجي ، وازدان سقفها المذهب بـ (ثريا)

---

(١) قصر (طولمة باغشة) أفخر قصور استامبول وأجملها موقعاً وهو حالياً متحف مفتوح للزائرين .

زجاجية ذات مائة شمعة ، غاية في الجمال ، فانحنت الجارية أمام سيدتها التي كانت جالسة على شبه عرش فاخر أمام الشرفة ، وعند رأسهـــا وقفت جارية صغيرة لتلبية الأوامر .. قبّلت الأرض بين يديها وقدّمت الضيفة . فاعتدلت (القادين أفندي) في تواضع ، ورحبت بضيفتها وهي تقول : لقد كنت أفكر فيك .... ثم أجلستها بجانبها متلطفة رغم اعتذارها . فقالت (شادية هانم) في نفسها وهي ترفع إليها بصرها في إعظام : إنها في هذه البساطة الجليلة كأنهـــا حورية من البحر خرجت لتستريح وتتفرج على القصر العظيم ...

بعد تناول القهوة في فناجين مغلفة بالفضة المذهبة ، أخليت القاعة إكراماً لها ، فأخذت (القادين أفندي) تصغي لشجون تلك السيدة الفاضلة في تأثر إنساني عميق ؛ وأخيراً مدت يدها تمسح عبراتها المنسكبة بمنديلها الحريري المطرز وتسألها :

— أمصممة أنت على اللحاق به؟ كان بودنا أن ينجح اجتهادنا في إرجاعه قريباً ! .

هزت (شادية هانم) رأسها نفياً ، ثم أردفت في عزم : كلا يا مولاتي المعظمة ! إنه سوف يرفض الرجوع ! أما أنا فلا أرفض الوفاء بما وعدته ،فسألحق به — إن شاء الله — وليس لي ما يمنعني عن رؤية (فزان البعيدة) بعد أن وصلها وحيدي ؛ أليست هي بقعة من بقاع الوطن الأكبر ؟ .

أسندت القادين أفندي رأسها إلى يمينها وهي تتأمل عزيمة تلك الأم ، ثم استرسلت في حديثها السامي معنى ولفظاً : منذ جاءتني وصيتك وعرفت مـــا تصبو إليه نفسك ؛ وأنا أدرس احوال تلك الجهات، فحرام عليك يا سيدتي أن تجعلي كل جهدي لنفيك وأنت في هذه السن! وقد وعدت بإرجاعه معززاً مكرماً في أقرب وقت !

انحنت السيدة شـــاكرة وقالت : ولكن يا مولاتي سوف يبعد منفياً من جديد ! هذا إذا فرضنا أنه يرضى بالرجوع ... إنه ممن يصعب عليهم مداراة الأحوال ! فقاطعتها القادين بلهجة مؤكدة : أجل يا أمي!سوف يتعب ما دام يرضى بفزان بديلة عن باريس...إن أوراقه نظيفة ، وسمعته طيبة . وقد استغرب أولو الأمر أسباب نفيـــه وإبعاده ... ما أجدره بالتقريب ! ثم تمتمت كأنها تناجي نفسها : أبعد وسيبعد الأبرياء جهـــلاً وظلماً إلى أن تعي الأمة حقها المشروع ! فيجد أمير المؤمنين نفسه أباً مبجـــلاً ، لا سلطاناً يملك الرقاب فقط ، فليت ابن استامبول البريء يكون داعية خير في تلك البقاع ؟ ثم أردفت في ابتسامة أشرق بها وجهها الصبوح وهي ترفع بصرها الحنون وهمست في شيء من الحذر : إنك يا سيدتي ملأت نفسي إكباراً وشوقاً لرؤية الصحراء وقطف الثمر من نخيلها ! .

* * *

مضت سنة كاملة على « إلهامي أفندي » وهو في فزان ،وقد أطلقت له الحرية التامة بعد ثلاثة شهور ، فكأنه لم يصلها مخفوراً منذ قصد القصر الهمايوني بصحبة ذلك الرسول المؤدب ... فسرعان ما لحظ تغييراً في معاملته ، من نفس المأمور الذي كان يستهين بلقياه ! فامتزج بأهل البلاد وتعلّم لغتهم بسرعة ، لأن معرفته الجيدة للقرآن الكريم ساعدته على ذلك ، وتكاثر أصدقاؤه ، فصار منزله مجمعاً للأعيان ، وكعبة للزوار . فما من قادم يقدم إلى واحة « سبها » إلا ويتعرف بالمنفي الكريم ... حتى أصبح يشارك جميع المأمورين في أعمالهم ويساعدهم ، بل ويعلمهم ما عنده بكل إخلاص . غير أنه مع هذا الاندماج الإنساني كانت أحب الساعات إليه هي تلك التي يجلس فيها قريباً من بئر أحد البساتين التي تغرف لأصحابها ، تحت نخلة وارفة الظلال ، وأمامه كثبان الرمل الحمراء ، فكأنها صور « ألبومه » الأنيق ، روعة وجمالاً !

وبينما كان في إحدى الأمسيات غائباً في تأملاته ، إذا بواحد من أهالي (سبها) يهتف مسرعاً : البشارة يا أفندي ! البشارة يا أفندي ! فهبّ إلهامي أفندي من دون أن يشعر .. ولكن بماذا يا ترى يبشره الفزاني الأمين ؟ وقبل أن يسأله هتف الرجل النشيط : الهانم !.. ثم مدّ يده للمصافحة الحارة ...

هنا ابتسم (إلهامي أفندي) شاكراً وأسرع صوب

الطريق . الطريق الرئيسية ، الطريق التي تأتي منها القوافل بالمنفيين أمثاله إلى بلدة فزان من أبعد بُعد .. من ثغر (طرابلس الغرب) وغيره .

فلما وصل حيث الهودج انحنى إكباراً ، فمدت له يدها النحيلة فقبّلها في حرارة الإبن البار ثم أنزلها بين ذراعيه القويتين، وهو في زيه العربي البسيط وقد لفحته شمس الصحراء فكست بياض بشرة استامبول بقشرة أكثر مقاومة . فهمست في أذنه ودموع الفرح تنهمر من عينيها : لقد أحضرت لك (ألبومك) يا بني إني لم أتركه .. فاجابها بنفس الغبطة : شكراً يا أماه ! لقد حضّرت لك أنا الآخر « عريشاً » في أعلى سطح منزلي الجديد تتفرجين منه على مناظر الحرية الواسعة في رمال فزان البعيدة وبين أهلها الكرماء ..

قالت : ألهذا الحد أحببتها ؟.

قال : نعم يا أماه ! لقد أحببت هذه الربوع ، وأحببت أهلها .. وسوف لا يترك « المنفي» وطنه الحقيقي الذي أخرجه من طفولته الغريرة ، إلى الرجولة الحقة ..

فلما جلسا أخبرته بأنها حصلت له على العفو « الهمايوني » وقد سلمته إلى الوالي ، فله الخيار في الرجوع إلى الوطن أو البقاء في ولاية طرابلس ، وأنها اشترت منزلاً مناسباً .. الخ.

فأعاد عليها عزمه في ثبات قائلاً : الحمد لله الذي أنطقهم بالحق ، ولا بد أن أختار (طرابلس الغرب) وطناً لي ولك يا أماه ! إني شعرت هنا بالكرامة وأنا منفي ، فسأسكن وأخدم (وطني الأكبر) [1] حيث نلت هذا الشعور ولن أرجع لبقعة أهنت فيها لغير سبب أعلمه لتلك الإهانة ! .

قالت : نعم يا بني . كم كنا نسمع من أقوال ملفقة ، والآن لم أر طول الطريق من (مدينة طرابلس) الجميلة ، إلا بما يشهد بكرم هذه البلاد ، واحترامها للحدود ، وإكرامها للغريب والمسافر على العموم.. وإني وصلت إليك يا بني مرتاحة ! فكأني في جماعة من الملائكة .. ليت أولياء الأمور يعملون على رفع شأن هذه الولاية والتقرب إلى أهلها بما ينفعهم ويقر أعينهم ..

ثم ضحكت رغم تعبها وهي تقول : بمنفيين مثلك يا إلهامي يندمجون فيهم في بضعة شهور !.

فرفع بصره في تعالٍ نبيل وأومأ وهو يقول (إن شاء الله).

(١) الوطن الاكبر للمسلم ، الوطن الاكبر للانسان الطيب الذي يشعر بانسانيته حقيقة ويقدرها ، هو الوطن الذي يسعى الشرق العربي اليوم لإيجاده باذن الله . فقد كانت ليبيا في نظر المنفيين جنة حبيبة بكرامتها .

١١

بنت الحاضرة [1]

اشترى السيد (حميده) داراً جميلة تحيط بها حديقة واسعة ، عدا البستان الكبير الذي يقع وراءها مباشرة ، في ضاحية (المنشية) أجمل ضواحي مدينة طرابلس الغرب في ذلك الحين. ووطد العزم على إدخال تصليحات إضافية تجعلها من أفخر الدور آنذاك ، على أن يتم ذلك في أشهر قليلة لينتقل إليها عقب أن تضع زوجته مولودها المنتظر مباشرة .

فكان ما أراد ؛ وأصبحت الحديقة تزهو بأنواع الرياحين وتغرد فوق خمائلها عشرات الطيور ، ثم أثث البيت بأجمل الأثاث ، وأفخر الرياش ، فأصبح جامعاً لأسباب الراحة والرفاهية من كل وجه .

وضعت السيدة فخرية طفلة جميلة فرح بها السيد حميدة ـ إذ لم يكن له نسل قبلها ـ فرحاً عظيماً تجلى فيه خلقه الليبي

(١) الحاضرة طرابلس الغرب . قصة تضع بين أيدينا صورة عهد الاحتلال البغيض ، ونكباته التي لا توصف .

السمح بأجلى مظاهره ، فأحب أن يحتفل بأربعينها وبعد حساب ـ سعيد ـ وجد أنه يصادف (ليلة القدر) ، تلك الليـــلة التي يحلها أهل بلاده منذ عرفوا نعمة التوحيدوأنارت قلوبهم المهيأة للاسلام آيات القرآن الكريم .

فقال : إن (الزهراء) نفحة من القدر ! فسيكون دخولها الدار الجديدة في ليلة القدر حيث تكون قد بلغت الأربعين من أيامها السعيدة ، الليلة التي نزل فيها القرآن الكريم على نبيـــه الأمين . وسأفتتح الدار بختمة شريفـــة ومولد ينتهي بحفلة (العوادة) يحييها أشهر العوادين في المدينة ، وسأجعل الحفلة ليلية ،وللرجال فقط ! وفي تلك الأمسية المباركة تنتقل (الزهراء) وأمها ، فكأنها عروس تزف من جديد إن شاء الله .

فقالت له أخته : إني أرى غير رأيك يا أخي ! فتقـــديم (محضر)[1] النساء بمناسبة (الأربعين) أوجب على كل حال ..

ولكنه رفض باسماً وقال في لهجته الحضرية المهذبة : إني لم أقرر هذا تحيزاً ،إذ كما تعلمين من طبعي ، أحترم أمور السيدات. فلا أريد بعد اليوم أن يكدر أم (الزهراء) شيء ! وقد أغناني الله سبحانه وتعالى ، وبارك أعمالي ، إنما القصـد أن أبدأ بما هو أوجب ؛ ثم نظمن ما شئتن من دعوات ومحاضر ليليـــة أو

(١) المحضر : الحفل الذي لا تزال تقيمه المرأة في طرابلس وتحسن إقامته في المناسبات السعيدة بتجديد فيه .

نهارية .. وليكن كل شيء على شرف طفلـتي العزيزة . . إني أتمنى أن أوفق لإسعادها بكل ما تسعد به (بنت الحاضرة) .

* * *

حان الموعد المبارك والأم وطفلتها على ما يرام من الصحـة والسرور ، وأحضر كل شيء حتى الحلويات والمشروبات الوطنية وكلف السيد حميدة أربعة من خواص الأمناء تبليغ الدعوة لجميع أعيان المدينة وكبرائهـــا من عرب وأتراك وغيرهم من نزلاء المدينة الأجانب ، وذُبحت الذبائح بين يدي الطفلة وأمها عنـد وصولها باب الحديقة الغنّاء ، ثم سلام الدار الفاخرة ، فكان السيد حميدة في استقبال أهله ، قرير العين ، فأمر بدخول العربة إلى داخل الحديقة ، فلما وقفت بين مطارح الأزهـــار ، مد إلى المربية السوداء التي تحمل الوليدة المحبوبة بين ذراعيهـــا طرف حوليه الحريري وهو يقول : إليّ بها ! فلما استلمها بين دعوات الخير ضمها مقبلاً جبينها المشرق تحت الكوفية المزركشة المزدانة بـ « خمساية » ثمينة من الذهب المرصع ببعض اللآلىء الصغيرة ، في حنان . فأحس من أعماق قلبه ـ لأول مرة وإن ناهز الأربعين من عمره ـ أنه أصبح شيئاً جديداً ، وبعد أن حيّا زوجتهوهي ترفل في أثوابهـا الوطنية الثمينة التي أهداها إليها بهذه المناسبة السعيدة ، وازدانت معصماها البضان بالأساور المرصعة ، وعنقها بعقود اللؤلؤ ، فزاد ذلك في كمال هندامها الرشيق ، وبهائهـــا المحفوف بإطار من الحشمة الأصيلة والوداعة الليبيـــة الموروثة ،

قال في شهامة :

مبروك عليك بيتك الجديد ! ادخليه بالصحـــة والهناء .

فشكرته بصوت يملأه الاحترام العميق . ثم تقدمت إلى البهـو الرخامي الفسيح حيث نثرت أخواته في وجههـــا الورود ، فاستقبلتها والدته الوقور تحمل مجمراً فضياً يتصاعد منه البخور الجيد ، فوضعته عند أقدامها ثم قبلتها وهي تقول :

ـ مرحباً ! خطوات الهناء والسعادة [1] إن شاء الله . . .

ثم قادتها إلى صالتها الخاصـة بين زغاريد أهـــل الدار المبتهجين فتقدمت خادمتان فخففن عنها « إحرامها » الصوف ـ الخارجي ـ وحذاءها الإفرنجي اللامع ، وقدمتا لها « ترليك » من الفضة الخالصة مزيناً بزخارف مذهبـــة ، فوقفت إلى المرآة الكبيرة تصلح من شأنها وهي تحدث حماتها ومن توكلن بترتيب لوازم السهرة المقررة لئلا تتعب هي ، متأملة هيئتها كأنها تحيّي سماءها اللطيفة التي قابلتها فكأنها من صور الحوريات ، وجسمها اللدن الملفوف لفاً رشيقاً في ردائها ذي اللون السماوي المنسوج بخيوط الذهب الخالص ، كما أثقل ساقيها . . . خلخـــال من الذهب أيضاً .

فبينما كانت تصلح أهداب منديل رأسها « التسمال » حول شعرها الأسود الفاحم ، انتبهت لها حماتها فقالت : ما شاء الله يا

(١) السعادة منحـة إلهية ليست برسالة ولا شهادة يحصل عليهـــا من إنسان . فقد كانت الأسرة الليبية من السعادة بمكان فأملي أن تذكر بناتنا ذلك ولا تغرهن الظواهر .

الزي الطرابلسي الجميل

وهو جميل أنيق فاخر حتى على لعبة تهفو لشرائها المرأة الغربية ، ولكنه الآن على المرأة الليبية والشابة المثقفة التثقيف الصحيح العارفة بقيمة الأشياء أجمل وأبدع ، حيث تتناسق الألوان وتشمله الروح المهذبة لصاحبته ببساطة لا تقدر بثمن ، وهو من الأزياء الشرقية المحبوبة .

فخرية ردت إليك صحتك التامة وستكونين شمس « المحضر » الذي سنقيمه من جديد ! وأنا أوصيك بهذا الثوب نفسه . ولا أدري كيف انسجم سواد غدائرك باللون السماوي الغالب في ثيابك ؟؟.

فقالت أخته الصغرى : اليوم محضرنا العائلي .. لن نفسد من هندامها شيئاً والله ! سأضع لها كرسياً وأقف بالمروحة أرف عليها إلى أن تنتهي السهرة أو تتعب من الجلوس !..

ولم يسع السيدة فخرية إلا تقبيلها شاكرة سعيدة ، ولسان حالها يقول : بل سأصب الشربات بيدي للضيوف ... هكذا نذرت .. ! ثم تساءلت في حنان : ولكن أين ابنتي ؟؟فضحكت السيدة الكبيرة في شيء من الانتقاد : إنها عند أبيها !! أو هي عند الشيخ القارىء !! ولعلها استجلست مجلس الإيمان والبركة ! ثم أشارت عليها بالنهوض قائلة :

ـ قومي بارك الله فيكِ ! تفرجي على بيتك ، واصعدي إلى مخدعك ، واطلبي بنتك إلى أن يحين وقت العشاء وحضور المدعوين .

انتهت السيدة فخرية إلى الطابق الثاني ، فشعرت بالحبور يملأ قلبها الرقيق ، فأخذت تقول : الحمد لله كل شيء على ما أحب ! حتى لوازم السهرة !. وعند باب مخدعها سمعت صوت الزهراء .. فكأنه تسبيحة الشكر والامتنان تعلو من فم ملائكي،

فلما دخلت الغرفة المضاءة (بثريا) كبيرة قال لها زوجها : تأملي الأثاث ! إني اجتهدت أن أجعل كل شيء لائقاً بك ، موافقاً لذوقك السليم ؛ فأرجو أن أكون قد وفقت في اختياري اللون الذهبي المفضل لديك .. أما المهد ، والسرير وكذلك (الثريا) الكبرى فقد أخفيت أمرها لتكون رؤيتها مفاجأة سارة إن شاء الله .. إنها جميعاً من صنع تونس وباريس سيدة الموضة .

هتفت وهي تنحني على طفلتها لتصلح من شأنها في دراية ما كان يتوقعها من فتاته المدللة .. شكراً جزيلاً .. وشكراً حيث لم تجعلها من صنع إيطالي . قالت ذلك في ضحكة سعيدة ثم أكملت كلامها قائلة : شكراً على ما تجشمت في سبيل راحتنا من تعب .. أتمنى أن نحتفل فيه بيوم عودتك من « حجة » إن شاء الله .. قال : آمين ، جميعاً بحول الله ، عندما تكبر ابنتنا قليلاً .. ولكن بالله عليك ماذا يحذرك يا فخرية من مصنوعات روما الجيدة ؟ قالت على الفور وهي تنظر إلى الساعة الدقاقة الموضوعة على خزانة صغيرة : قربها من طرابلس ! وخوف تعديها على حريتنا يوماً ما !.

إن سكان بيت المنشية وبيت سكرة ـ تقصد بيتها وبيت أبيها ـ تكره كما تعلم الأجانب المتعطشين لهضم حقوقنا ، فلا زلت أسمع بأن تلك الأمة تحوك لنا بعض الحبائل ، ولا تترك وسيلة للاستيلاء على مشاعرنا ولو من باب الصناعات الخلابة !

فأنت رجل مالي من صميم البلاد يسرني أن تعيش كما عاش أبي محايداً بعيداً عن كل شبهة !.

لم يستغرب السيد حميدة من زوجته هذه النقمة المهذبة واللهجة الرزينة ، لأنها من زهرات الحاضرة ! كما أنها من أسرة نابهة في الاقتصاد الوطني لم تبخل على بناتها بالمعلومات المحدودة ، الممكنة إذ ذاك ، فأجابها مرتاحاً :

ـ كم يسرني فهمك لكل شيء ! إن بنات الحاضرة إلى ما قبل سنوات كن يجهلن الحقائق .. أما كلماتك هذه فتؤكد وجود يقظة ما ، إن كثرة معاشرتنا للأتراك واطلاعنا على بواطن أمورهم ، أخذ يحدث أثره في مجتمعنا ، كما غيَّر نظرتهم لنا وسبب التطور حتى فيما يلي حكمهم في بلادنا ، وعلمونا أشياء لا بأس بها ، وهنا أستطيع أن أقسم لك بأنني لم أتبع أجنبياً يضر بلادي ولو بكساد منتوجاتها ولن أفعل ذلك أبداً إن شاء الله . وقد كانت رحلتي إلى البلاد الشرقية وبعض مقامي في استامبول درساً كما رويت لك مراراً ، بل دروساً فهمت بها عظمة الأسرة التركية مع وجود أسباب الضعف السياسي الطارىء عليها .. وأيقنت أن الأسرة دعامة الوطن الأساسية في كل أمة ، وكيف بأمة التوحيد ، فليتنا نستطيع مقاطعة كل مضر بحقوقنا وحريتنا .

وعندما أضيئت الدار ، وأحضرت الموائد ، أشار عليها بالمرور

على « السلاملك » قبل توافد الضيوف ، فوجدته جناحاً فاخراً يتألف من ثلاث حجر كبيرة وفوقها ثلاث غرف كذلك بلوازمها ، لها باب خارجي . وقد فرشت بأحسن الفرش وعلقت في صدر إحداها صورة الخليفة الجديد في إطار مذهب ، تقابله لوحة «قرآنية » في نفس الحجم وفي مثل إطارها كتب فيها بالخط الكوفي الجيد « نصر من الله وفتح قريب » . وتوقفت السيدة في بهجة تشكره على اعتنائه بتلك اللوحة ، وتقول مفتخرة :

ـ إنها القطعة التي نلت بها شبه شهادة من أستاذ التطريز ، وهدايا من أبوي وأهلي ! وفي الحق إنها شعاري ..

وضحكت وهي تتم كلماتها :

ـ كنت قد قبلتها مني هدية يوم علقت لوحاتي العديدة ، واحتفظت بها في محل ضيوفك دون أن تعلم أنها شعاري ! وقد طرزتها في ظلال الياسمين والورود في حديقة أبي سكرة ...

ثم أصلحت بعض الأغطية والوسائد ونزلت .

انتهت السهرة بما فيها من ضجة ومولد وموسيقى ، على أبدع ما تنتهي به الحفلات في طرابلس ، فكان الحفل شائقاً والمكان غاصاً بالمدعوين ، والأزياء المختلفة من « الجرد » الليبي والطاقية الحمراء ذات الزر الطويل ، إلى البدلات العسكرية والمدنية ، إلى عمائم العلماء .. فوقف السيد حميدة قبيل الفجر بقليل يودع ضيوفه ، وقد لف « حوليه » فوق ثيابه الأنيقة لفاً مهذباً للغاية ، يكرر عبارات الشكر ويصافح بحرارة وإخلاص . فإذا بكبير القضاة

يمسك بيده ويقول بعربيـــة مكسرة ، ناسياً أن السيد يحسن التركية كمعظم المثقفين في ليبيا :

ــ العفو يا سيدي ، المسامحة ؛ من أين اشتريتم اللوحة القرآنية الثمينة ؟ فقال له :

ــ إنها هدية يا سيدي ! وفوق ذلك شعار عزيز لا يباع ، بل يحافظ عليه مع الروح !

انحنى الشيخ العالِم انحناءة التركي الأصيـــل إجلالاً وهو يقول :

ــ العفو ! الآن فهمت ! بارك الله في بنت الحاضرة ! إنها ذكرتني والله ببنات استامبول الجميلات وبراعتهن في التطريز خاصة ...

* * *

توقفت مدافع المدمرات الإيطالية مع الظلام . وبينما كان أولئك لمعتدون يلهون ويشربون ، والبوارج مضاءة بالمصابيح العديدة ، أخذ أهل المدينة يرحلون عن ديارهم تاركين كل شيء للنجـــاة بنسائهم وذراريهم إلى خارج المدينة ، على ظهور الإبل والخيل ، والأغلبية مشياً على الأقدام ، إذ انكسر خط دفاعهم ، وتضعضعت آمالهم أمام نيران البوارج الجهنمية ، وأظلمت الدنيا في عيونهم ، لأن ما يعرفونه عن طبيعة كل معتد أثيم ، جعلهم يخافون ولا يلوون على شيء . فاكتنف ذلك الظلام ــ الذي لم ينره في تلك الليلة المحزنة

غير الأضواء الكشافة من البوارج ــ على مناظر تاريخية تشهد على مدى العزة العربية المسلمة المجيدة ؛ سيول من البشر تكاد ملائكة السماء تتنزل إعظاماً لوطنيتهم الصادقة ، ومظاهر الحيرة المفجعة تتلخص في رغاء الجمال المكبوت ، وحوافر الخيل الحذرة ، ونحيب النساء والأطفال المرير ، قاصدين النواحي الداخلية في رعاية الله وحماية الشجعان الذين لم يبق لديهم سلاح غير إيمانهم بعدالة السماء ووطنيتهم التي توحي إليهم بكل تضحية وفداء !.

في تلك الليلة كانت دار السيد حميـدة أيضاً في المنشية في نفس ذلك الهرج والفزع ، وبعد ساعة خرجت من باب الحديقة فرس حمراء يقودها شـــاب أمرد نبيل السمات ، وعلى الفرس سيدة يظهر عليها الضعف ، تمسك في يدها شيئاً ملفوفاً بقماش ، وتأبى أن تسلمه للشاب رغم توسلاتـــه ووعده بحسن المحافظة عليه ، وفي تلك اللحظات خرج أيضاً شيخ جليل ، يقود جملاً عليه شابة نشيطة كأنها القمر عند تمامه ، بين يديها طفل وديع ، وهي تكرر قولها : « بالله عليك يا بوي ؛ ناولني اللوحـة عن أمي !! إنها ستزيد من تعبها ، إني سأحافظ عليها محافظتي على ابني .. بالله أكد لها ذلك ، بالله .. » فكان الشيخ يودع منزله بنظرة عميقة ويملأ جوانحه بأريج تلك الحديقة البديعة لآخر مرة كما يعتقد . المنزل السعيد طيلة السنين التي عمرها بتلك الأسرة الكريمة المنسجمة ، تظلم أركانه ، وتفارقه الحيـاة فجأة ، وكم امثله من منازل ، وكم من بيوت ..

وأخيراً تحرك يأمر بالإسراع وهو يقول: صبّرك الله يا بنيتي وحفظ يتيمك الصغير بل قهر الله القوم الظالمين ...!

وبعد لأيٍ أخذوا منها اللوحة ، فسلموها للشابة التي رملتها القنابل الأولى من بوارج المعتدين على الوطن المفدى ، والسيدة فخرية لا تنفك تسأل عن اللوحة . ثم تتمتم بينها وبين نفسها : إنها شعاري والله !! إنها فألي الحسن ، إنها البشرى الصادقة لحياتي السعيدة ! واليوم أراها فأل الوطن ... فيبتسم الشاب احتراماً ويقول لأخته : احذري من ضياع الشعار أو خدشه !! حتى في هذه الليلة ونحن نترك كل شيء ! ونتمنى أن يقضى علينا في متاريسات السواحل المكشوفة قبل أن يطأ العدو ديارنا !.

أما الشيخ فلم يتحمل المشي ، فركب فرسه الأخرى ، وأخذ يساير الجمل صامتاً . فأعجبته شجاعة إبنه فقال في كآبة : نعم إنها شعارها ! فلا تفجعوها بها !! ثم أردف : في الحقيقة كانت تكره الأجانب ، أعني الإيطاليين ولو جيرانـاً مؤقتين رغم محبتها للناس وتقديرها لمن وجب تقديره وتقول لي : بالله عليك ألا تتصورهم معتدين وقد أخرجونا ـ لا سمح الله ـ من ديارنا إلى حيث لا ندري ؟ إنها ليست مريضة ، ولكنها من غير شك مفجوعة في وطنها ...

وصلوا رمال بلدة جنزور بين تلك السيول المتدفقة من

المهاجرين والمجاهدين على السواء ، فوقف الشاب هنيهة مع أحد الفرسان الأشاوس ولم تسمع الأم غير قوله في عزم : عند طلوع الشمس أنا عندك ، ولن أفارق الميدان إلا شهيداً إن شاء الله ، إني رضعت محبة الوطن العزيز في اللبن ، وسأفدي حريتنا بروحي .

فلما ابتعد الفارس قالت له وهو ينزلها مترفقاً :

ـ من الفارس يا بني ؟

قال وهو يجلسها على فراشها داخل الخيمة الصغيرة التي اصطنعوها من بعض الجرود :

ـ مجاهد يا أماه ! ممن عاهدوا الله ورسوله على الموت في سبيل الوطن ! .

تأملته على ضوء سراج ضئيل أشعله الشيخ منذ ابتعدوا عن مواقع الخطر ، ثم ابتسمت في رضى المؤمنة بالواجب قائلة :

ـ أسعدك الله يا بني في الحالتين ... ولم تزد ، إذ التفتت مع الشاب على صيحة كريمتها وهي تقول :

ـ إلهي !!.. انكسرت ! بل ذهبت شظايا !.

فحاول تخليصها من بين ركبتي الجمل البارك ولكنه لم يفلح ، إذ مزق الزجاج المنكسر القماش إرباً إرباً ، بعلا ثلاثين عاماً ... فلما أعلمت بالخبر ، طلبت البقية المتبقية منها ، فأرادت إرجاع

القطع لبعضها ولكنها لم تفلح ولو في كلمة واحـــدة من الآية الكريمة .. وحفرت هناك على يمينها في تلك الرمال الناعمة حفرة ودفنت بيدهـــا النحيلة من بوادر الهجرة المفاجئة بالنكد والشقاء ، شعارها الممزق .. ولكنها تجلدت وكأنها لم تصب بتلك النوبة القلبية الخطرة قبل يومين،النوبة التي أصبحت بعدها كأنها شيخة تكبر قرينها البالغ من عمره الخير السعيد الثمانين .

ولما سوت الأرض ونفضت يديها قالت والدمع ينهمر من عينيها : انكسر شعاري وذهب أملي في الفتح المأمول والنصر المنشود ، انكسرنا كما أعتقد والعاقبة لله ..

فلما أراد زوجها التخفيف عنها أجابته :

ـ إن نفسي تحدثني بالإنكسار العام لوطني ، وإلا لما كدرني ذلك .. فتلكن وصيتي : إذا ثبتم ـ فليكن « رفيق » من بين المجاهدين . إنه شجاع ، وطني ، رغم صغره ، وقلة تجاربه ، فلا تبخل عليه بمساعدة ، ولا تعرقله عن نيل الفخر في الدارين !.

* * *

نشبت معركة الهاني الشهيرة ، فتدفق المجاهدون مكبرين يودون سحق العدو المعتدي براً وإغراقه بحراً .. وانبعثت قوة ما كان أحد من الناس يصدقها في أبناء ليبيا.. البلد الوديع،قوة لم يسطر تاريخ الأمم الحديث أروع منهـــا ، ولا أخلص من

مبعثها ، تجرف المحال وتمحو المستحيل .. ففزع العدو وأخذ يصب حمم المدافع ويحصد تلك النفوس الأبيـة المندفعة للموت في ساحة الشرف عن إرادة واختيار . فكان العجب الذي لم يحسب له أولئك الطغاة حسابه الحقيقي في نزهتهم البحرية ، إنما رأوه واقعاً ملموساً .

شجاعة ، إقدام ، تضحية فوق تصور البشر في تموجـات القرن العشرين ، والجيل السعيد كما يقولون بهتاناً . ومـا انجلت المعركة التاريخية المشرفة لأبناء ليبيا ، لأوليتها للمعارك الكبرى من الجهاد المجيد وشهودها بما للشعب الليبي المسلم النبيل من حق في الوجود مرفوع الرأس أبد الدهر ، إلا والمئات من العدو قد فارقوا الحياة تحت حوافر الخيل ، خيـــل أبطال الجهاد الإسلامي،الذين لم تخفهم كثرة الشهداء،بل اعتزوا بالنصر الذي أسبغه الله عليهم في هجومهم ، فوقف القائد التركي ؛ وكان رجلاً يضم إلى طيبة قلبه السليم حب الإقـــدام والذود عن الكرامة الإنسانية أينما كانت ، ولكن الظروف القاسية تركته يضطرم أسى على عدم استطاعته عمل كل ما يلزم عمله ، وقف والدمع يترقرق في عينيه يهنىء الزعماء المحتشدين ، أولئك الصناديد الذين دخلوا عليه خيمته الصغيرة ليلة التقهقر فرجوه أن يحسن الظن بهم ويكون معهم إلى أن يأمر الله بما يشاء .

وها هم يبرهنون في كل موقعة عن صدق ما قطعوه من عهود

لله ، والوطن ،والدين الحنيف ،فشاركهم مع الهيئة العسكرية كلها الشكر لله والصلاة على من استطاعوا نقلهم من الشهداء ، وتدبير أمر الجرحى ، وقد ثبتت عزيمتهم ، وجددوا العهد على المقاومة والجهاد صفاً واحداً ، هم وتلك الهيئة ، إلى أن يطردوا عدو حريتهم أو يفنوا جميعاً مقدرين لذلك القائد شهامته .

* * *

اعتدل السيد حميدة متهيئاً يستقبل مواطنه وصديقه القديم ، الذي بادر لمعانقته وهو ببزة الكفاح وهيئة المجاهد ، وأخذ يصبره ويذكر له ما وعد الله سبحانه وتعالى به شهداء الحق من المؤمنين . وبعد برهة تمكن السيد من ضبط نفسه وكفكفة عبراته المؤثرة .

جلسا إلى ركن الخيمة البسيطة فقال المجاهد : الأجل محتوم .. كم رجوت منه أن يبقى بجانبكم حتى ندبر له عملاً في في المعسكر ، بل أردته في إدارتي الخاصة ، لأنه صغير وله مستقبل علمي لا بأس به ، ولكن .. فلم يتركه السيد يتم كلامه بل ابتسم في وقار وهو يمسك بيده يهزها في إخلاص ويقول :

« أيها المجاهد ! البركة في البقية إن شاء الله من أبناء الوطن العزيز ! ربنا ينصرنا يا بني ! أما أنا فقد واريت والدته أيضاً منذ الساعة الأولى من النهار .. وقد أسلمت الروح هادئة

بل سعيدة ، وهي تهتف باسمه مهنئة له بالخلود .. إنا لله وإنا إليه راجعون . إني أشكر عناية إخواني المجاهدين في التثبت من مثواه الأخير !وإطلاعي عليه .. ثم تنهد متمماً حديثه في جلال: أما أنا فقد بقيت وحيداً بعد الجميع .. فمنذ اليوم تجدني تحت أمرك ولن أفارق مخيمك إلا .. فغلبته أحزانه ، مجددة لعبراته كأب أصبح وحيداً بعد زوجته الوفية وبنيه الأعزاء في طرفة عين ..

فقال له مواطنه : لن يصيبك أيها العزيز إلا ما يصيبنا إن شاء الله . فرحم الله شهداءنا رجالاً ونساءً ، وأثاب الفدائيين في هذه الساحة المباركة ، ساحة الجهاد في سبيل الله والوطن ؛ رحم الله الشهيد « رفيق » وأمثاله .

وبينما كان السيد «حميدة» يمسح دموعه سأله في رفق وحنان « أتستطيع مفارقة هذا الميدان ؟ إن كان ذلك ممكناً فتفضل بقبول دعوتي الخالصة لتكن بين أهلي وولدي إلى آخر الدهر..». قال هذا وانحنى خاشعاً لتلك العبرات السخينة . وبعد برهة رفع السيد « حميدة » رأس صديقه بيده اليمنى حتى تقابلت نظراتهما فكأنه يريه كيف يكون خير المؤمنين الصميم ثم قبل راحته باسماً وقد أضاءت محياه لمحات رائعة من الهيبة ، فقال بصوت نبيل :

« لا يا بني ! [1] لا تتركني وربك أفـــارق ميدان العزة والكرامة فكل فتى هنا عندي « رفيق » !

فضغط كل منهما على يد الآخر ودموع الزعيم تنهمر بعـــد الاحتباس ، وقد ألجمته عظمة تلك النفس الحزينة ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة .

---

(١) بتلك الوطنية كتب الانسان الليبي تاريخ جهـــاده المقدس وصان مجتمعه وصبر للنوائب والأحداث إلى أن انجـــلى كل ضيم وحيف فأصبح بفضل أبطاله حراً كريماً يملك أرضه ويعمل لأمجاده بكل ما لديه ، فأين ذلك من اليوم ! سبحان ربي ما أقدره .. من سنة ١٩١١ م إلى سنة ١١٧١ م ، والحمد لله وحده .

فهرس

صفحة

الإهـــداء	٥ – ٦
مقدمـة	٧ – ١٠
قدسية الأمومة	١٣
الكرامة الحقة	٣٠
الأب الحكيم	٤٣
نخوة عربية	٥١
الربيع في الحمادة	٦٠
وشاح الشجاعة	٧٣
الرجوع إلى الله	٨١
الرحلة القاسية	٩٠
المروءة	١٠١
فزان البعيدة	١٠٩
بنت الحاضرة	١٢١

للمؤلفة

صفحات خالدة من الجهاد

للمجاهد الليبي : **سليمان الباروني**

الجزء الأول من الكتاب الأول ١٩٦٤ م .

صفحات خالدة من الجهاد

للمجاهد الليبي : **سليمان الباروني**

الجزء الأول من الكتاب الثاني ١٩٦٨ م .

القصص القومي

مجموعة قصصية — الطبعة الأولى ١٩٥٨ م

الطبعة الثانية ١٩٧٢ م

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
هاتف ٢٥٧٤١١ - ٢٩٤٢٠٤-٢٩٣٠٤٣
بيروت - لبنان - ص.ب ٥٦٢٠

٢٠٩٨/٣٠٠٠/٧٢

الثمن ٣٠٠ درهم ليبي أو ما يعادلها